ارسيل بريفو

مكتبة ٦٢٦

مصنع البيانو الضخم

ترجمة
سن صادق

مكتبة | 626

مصابيح البيان والضيري

للدراسات والترجمة والنشر
دمشق ــ اوتوستراد المزة
هاتف ٨١٦١٢٦ ــ ٨٨٦٩٥١
تلكس ٤١٢٠٥٠
ص . ب : ١٦٠٣٥
العنوان البرقي
طلاسدار
TLASDAR

ريع الدار مخصص
لصالح مدارس أبناء الشهداء في القطر العربي السوري

جميع الحقوق محفوظة
لدار طلاس للدراسات والترجمة والنشر

مكتبة
t.me/t_pdf

الطبعة الاولى
١٩٨٥

مارسيل بريفو

مصابيح البيانو الضوئي

مكتبة | 626

ترجمة
حسن صادق

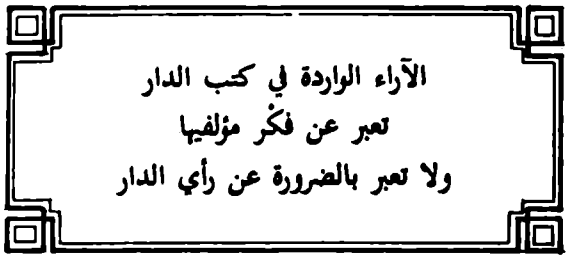
الآراء الواردة في كتب الدار
تعبر عن فكر مؤلفيها
ولا تعبر بالضرورة عن رأي الدار

مكتبة
t.me/t_pdf

مقدمة

يعد مارسيل بريفو من الكتاب الفرنسيين الذين برزوا في أواخر القرن التاسع عشر ، وقد ولد في سنة ١٨٦٢ وعاش إلى ما يقارب نهاية النصف الأول من القرن العشرين إذ مات في سنة ١٩٤١ . وقد ظهرت براعته بنوع خاص وبدأ تفوقه **في ميدان القصة . ويعد مارسيل بريفو من أهم الكتاب** الذين انقطعوا إلى تحليل المرأة ونفسيتها وهو إنما يقصد بالطبيعة المرأة الفرنسية في عصره وقد وصفها وصفاً دقيقاً وحمل عليها وأبان عن ضعفها الأخلاقي . واشتهر أول ما اشتهر بقصة أسماها أنصاف العذارى Les Demi - Vierges نشرت في سنة ١٨٩٤ ثم بدأ ينشر قصة مسلسلة من سنة ١٩٠٢ تحت اسم رسائل إلى فرانسواز . وهي قصة حياة فتاة منذ صباها الأول إلى أن صارت امرأة وزوجة .

واكتسب فنه قوة جديدة في قصة نشرها سنة ١٩٢٥ باسم « أنا وخليلته » « Sa maitresse et moi » .

أما القصة المثيرة التي ننشرها له اليوم فهي قصة بديعة ، بعيدة عن أن تكون صورة من صور عيوب المرأة في ضعفها : نعم ، إن المرأة في هذه القصة ضعيفة ولكنه ضعف ناشيء عن مرض خطير يفتك بها ويقضي على حياتها . أما الرجل المسكين الضرير في حبه الطاهر فهو ضحية الإخلاص والذكرى .

حسن محمود

الفصل الأول

أقدم الذكريات ، تظل في كثير من الأحيان ، أوفرها حظاً من القوة والبقاء وحينما توقظها إحدى المصادفات في قرارة نفوسنا ، تعرونا الدهشة الشديدة ، إذ نراها قد بُعثت بشتى ألوانها في وضوح وبروز لا تحظى بمثلهما حوادث الأمس القريب . وهذا شأن السحر الذي تضفيه تأثيرات الطفولة حين تطفو فجاءة وتنتعش دفعة واحدة . إنها تفيض رقة وعذوبة ، وتبعث في النفس قليلاً من الضيق في الوقت ذاته ، لأنها ترسم للذهن صورة دقيقة جداً لما كنا عليه في ماضينا تختلف اختلافاً بيناً عما نكون في حاضرنا . وهذا يستحضر في مخيلتنا هموم العيش ، وعلى الأخص أننا مررنا بالحياة .

هذا ما شعرت به حينما تسلمت في باريس منذ أعوام ، نبأ وفاة قريبة عجوز ، قضت سني حياتها وهي تقطن بيتاً في مقاطعة

« لوت وجارون ، لم تستبدل به غيره طيلة عمرها ، وقد أقيم هذا البيت ذو النقوش الريفية ، إتماماً لزينته فيما يظهر ، على مرتفع من الأرض يطل على نهر « بايز La Baise » . وهو مركز المزرعة ومسكن المالك معاً . ولذلك كان يجمع إلى بساطة المظهر جمال المنظر ، الشائعين في بيوت الطبقة المتوسطة الذين يحيون حياة راضية متواضعة على مقربة من أرضهم . كم من ذكريات طفولتي خلفتُها في تلك البقعة من بلاد الجاسكون ظللت وقتاً طويلاً أسبح في التأملات أمام خطاب موثّق العقود الذي يعلن إليّ فيه أن « عمتي روزالي » قد ماتت ، وأنها أقامتني وريثاً لها » .

ارتسمت في ذهني صورة المبنى المربع المغطى بالقرميد ذي النوافذ الحمراء ، والشرفة (Terrasse) التي تجملها شجيرتان من شجيرات المانوليا ، والمزرعة المجاورة ، وغابات السنديان ، وحقول القمح والكروم .. وفترات العطلة الجميلة المشمسة التي قضيتها هناك ، وسط طبيعة تماثل التي تغنى بروائها ، فرجيل ، في قصائده عن الريف ، حينما كنت أطلب العلم في بوردو !

لشد ما كانت هذه « العمة روزالي » تغمر بطيبتها هذا الطالب أيام عطلته الدراسية ! إنها عانس عجوز ، تتملكها بعض الوساوس ، ويسيطر عليها ضرب من القلق ، مما يضايق

قليلاً من يجالسها أو يقيم معها . ولكنها برغم ذلك ، كانت كبيرة العطف شديدة الحنان .

تمثلتها هي الأخرى في خاطري ، تغطي شعر رأسها بقطعة من « الدانتل » الأسود كما كانت عادتها دائماً ، وتبتسم لي في رقة أخّاذة بين كلمتين من كلمات التقريع اللطيف ، اللتين يبررهما كل التبرير ما أُدخله من الاضطراب ، كطالب مشوش ، على حياة عجوز تكلف بهدوء العزلة وتستنيم إليه . وكان هذا الابتسام ينشر على وجهها الضارب إلى لون الشمع ، غضوناً صغيرة تشبه غضون الفاكهة التي تنضج على الألواح الخشبية في المخازن والأهراء بعيداً عن الأغراس والأغصان . آه ان فاكهة العمة روزالي ما تزال تملأ بعطرها ذكرياتي عن أيام العطلة .

واأسفاه ! إن هذه الذكريات ليست خالصة من بعض الأسى ووخز الضمير ! .

فما ان أتممت دراستي ، حتى أعرضت اعراضاً تاماً عن زيارة العمة روزالي و « برج الحمام (Le pigoeonniere) » — وهو الاسم الذي أطلق على البيت . ففي مدى عشرين عاماً ،

لم أعد إليه إلا مرة واحدة لأمضي بضع ساعات لا غيرها . ويرجع تاريخ هذه الزيارة الوحيدة إلى ثماني سنوات وماذا كنت أستطيع أن أفعل ؟ في باريس ، أعمال كثيرة تؤدَّى ، ومساع شتى تُبذل ، وألوان من المسرات تستهوى . وكلها يستغرق بالتناوب الوقت كله ، ويستأثر بفكر المرء ولبه حتى يصبح معه كثير النسيان ، فيترك أقاربه الذين تقدمت بهم السن ، يحتملون مرارة الشيخوخة في وحدة ممضة ، إلى أن تحين ساعاتهم ويقضوا نحبهم . ولكن هذا الأهمال من جانبي ، لم يمنع « العمة روزالي » من أن تذكرني إلى آخر لحظاتها ، وأن توصي لي بثروتها المتواضعة ، التي تتكون على الأخص من هذا البيت المسمى « برج الحمام » والثلاثين هكتاراً من الأرض الجيدة التي تحيط به .

وبعد أن فكرت طويلاً في السرعة المرعبة التي تصحب فرار الأعوام ، وأخذت حظي من تذوق المرارة الشهية التي تبعثها في نفسي ضروب الندم وتبكيت الضمير ، أخذتني فجأة الرغبة الملحة في العودة إلى رؤية « لوت وجارون » ونهر البايز ، والبيت ذي النوافذ الحمراء .

وكان ذلك في الأيام الأخيرة من شهر سبتمبر ، التي تعد

بحق أجمل فترات السنة في تلك البلاد الجسكونية ، حيث يكون الصيف فيها شديد الحرارة إلى درجة يصعب احتمالها في كثير من الأحيان . وكانت باريس ، التي احتجزتني فيها مشاهدة قصة تمثيلية جديدة ، قد غمرت عليّ الضيق والملل فسافرت في المساء نفسه . وفي اليوم التالي ، عندما دقت الساعة العاشرة صباحاً ، دخلت فناء « برج الحمام ، فحيتني الديكة والدجاج بصياحها القلق ، ورحبت بي « إرما » ، خادم « العمة روزالي » التي لا لازمتها العمر كله ، مهللة في لهجتها الأقليمية الحلوة .

مسكينة إرما ! لقد أبكاها الفرح ، إذ خيل إليها أني جئت للإقامة المستديمة بدلاً من المتوفاة !

ألم أكن من بعض الوجوه طفل البيت وربيبه ؟!

لم أشأ أن أفسد عليها تصورها ، وأقضي على فرحها في مهده . وفي الحق ، أن الأيام الاولى مرت بي في « برج الحمام » ناعمة مستساغة ، على الرغم من الوحدة التي وجُدت فيها ، وعلى الرغم من أن هذه الوحدة تكاد تكون تامة شاملة .

شعرت في هذا البيت شعوراً لذيذاً حاداً ، بأن ذكريات طفولتي السعيدة تغمرني وتملك عليّ نفسي . كانت هذه الذكريات تقفز عليّ من الأرض عند كل خطوة أخطوها ،

وتستحوذ على مشاعري في شدة عذبة مشتهاة . وكانت إلى ذلك ، تسليني وتستدر حناني..

كانت صورة « برج الحمام » تتراءى لذهني من بعيد خلال غُلالة من الاكتئاب فلما جاءني كتاب الموثِّق . وضحت الصورة وكأني بها قد أُلقيت أمام عيني . ذلك أن بعد الشُّقة تَعاون مع فترة الغيبة الطويلة في الوقوف بيني وبين المسكن العائلي حيث يستطيب ماضيّ الرقاد .

والآن وقد عدت اليه ، وتنفست هذا الهواء المليء بالذكريات ، وتقبلت الترحيب بي في تحية الخادم وابتهاج الشجر الودود ، شعرت كأني رجعت إلى سن الطفولة ، فتذوقت نضرة التأثيرات تذوقاً موقوتاً ، وأحسست نفسي خالصة طليقة من حمل آدها طويلاً ، فاستمرأت هذا النوع من الحنان الأثر الذي يقدر الفنان نفاسته : إنه إستحضار لشخصية الزمن الغابر تبدو بغتة في سن الكهولة .

وفي حماسة الباريسي الذي كان ريفياً فيما مضى من الأيام ، اعتزمت أن أصلح أعمال « برج الحمام » التي أهملت قليلاً في الأوقات الأخيرة .

وجدت دويبة العنب قد أهلكت الكروم فلم تبق منها على

شيء . فتذكرت في ألم ، تلك العناقيد البنفسجية الكثيرة التي كنت ألتهمها خفية حينما كنت طفلاً عربيداً . كم من كرمة رأيتها جافة ملتوية مسودة ، كأنها بقايا حريق هائلة !

وضعت بالاشتراك مع « إرما » خطة ترمي إلى احياء الكروم مرة أخرى، وبذلك خلقت لنفسي أسباباً وجيهة لإطالة مدة إقامتي في الريف .

وكانت « إرما » تكثر من التحدث إلي ، وهي تقوم بخدمتي أثناء تناول الطعام . وفي المساء كنت أقضي جزءاً من الوقت في مكتبة « برج الحمام » التي تشتمل على بعض كتب قيمة نشرت في القرن الماضي ثم آوي إلى فراشي قبل أن يتقدم الليل، لأستيقظ في اليوم التالي مبكراً وجميع الذين يقيمون في الريف ، يعرفون اللذة الساذجة التي يبعثها في النفس هذا التغير البسيط في المواقيت .

ومع هذا ، فقد بدأت في نهاية الأسبوع الأول ، أشعر بشيء من السأم، إن خلوتي إلى نفسي طول الوقت بل وعشرة « إرما » لم تعد كافية لإنقاذي من هذا الملل . ولو كان في استطاعتي العودة إلى باريس ، لما تأخرت ولكن المرء إذا قرَّ في ذهنه أن يكون مالكاً زراعياً جديراً بالتقدير والاحترام، فإنه لا

يستطيع الخلاص من فكرته في سهولة ويسر فإن للأرض سلطاناً استبدادياً عليه . وإذا أصدر المالك أمراً بالقيام لعمل ما ، فإن هذا العمل يتطلب منه عناية في الملاحظة . ولا يستطيع أن يكله إلى شخص آخر يشرف على إنجازه قبل إنقضاء خمسة عشر يوماً على الأقل . فكيف بي وأنا لم أختر بعدُ وكيلاً لأعمالي ؟! لقد حُكم عليّ بالإقامة الريفية الإجبارية من غير شك ، وأصبح لزاماً عليَّ أن أنتظر في خضوع وإستسلام حتي تهيء لي الظروف سبيلاً للنجاة مما وقعت فيه .

كان النهار يمر بي محتملاً ، إذ انفقه في أنجاز كثير من الأعمال . ولكني كنت في حاجة شديدة إلى البحث عما يستغرق أوقات الفراغ في وحدتي حين تأتي حتماً ساعة التوقف عن العمل اليومي في الريف : وهذه الساعة تحين مبكرة في فصل الخريف .

هذه الحال ألهمتني شيئاً : كانت غرفة الاستقبال لدى « العمة روزالي » من طراز لويس فيليب وهي جميلة المنظر بديعة التنسيق تستهوي البصر بمقاعدها الكبيرة من خشب الزان المكسوة بالمخمل الأحمر ، وساعتها المرمرية التي يمثل جزؤها **العلوي رأس آلهة الحكمة ولوحاتها المعلقة ذات الطابع الابتداعي**

التي ترسم صوراً من « نوتردام دي باري » و « المشرفيات » . وقد رأيت في ركن من هذه الغرفة على مقربة من المدفأة ، بياناً قديماً من طراز عتيق من صنع بلبيل .. على شكل صندوق مكعب مثبت على قائمتين في شكل X بينهما ، وقرأت على قطعة من العاج المصفر في داخله هذه الكلمات : « إينياس بلبيل . مورد الملك . النوط الذهبي ١٨٣٤ » . وبهذا يعلن البيان عن السنة التي أنشيء فيها أو ما يقرب منها : لقد صنع بين عام ١٨٣٤ وثورة عام ١٨٤٨ التي لم يعد بعدها في فرنسا « مورد الملك » .

أردت أن أوقظ روح هذه الآله : الهرمة من سباتها العميق الطويل فاختبرت ملامسها ...

ـــ وأسفاه ! لقد وجدت ـــ بياني المسكين يكاد يكون عاجزاً عن النطق . وقد صدرتْ عن بعض أوتاره أصوات ، ولكنها كانت خالية من النغم والانسجام إلى درجة خيل إليّ معها أني أسمع تلعثماً مضحكاً أليماً من رجل هرم لم يعد يساير عصره في الكلام والتعبير !

أيعرف المرء شيئاً ينشيء في النفس ضيقاً واكتئاباً أكثر من آلة موسيقية ، كانت في سابق عهدها تسحر الألباب بنغمات

الحب والشباب ، وألحان الأماني والأحلام ، ثم أصبحت تسعل وتصر على أسنانها كامرأة هرمة أنهكها الزكام ؟! ما أشد رثائي لحال هذه الآلة التي صنعها « بلييل » أيام حكم ملك الفرنسيين ، وعاصرت ماري ماليبران وهيبولت مونيو ! لست أشك مطلقاً في أنها غنت « الأندسية » لموسيه ، وتنهدت في نغمات « البحيرة » للامارتين ، وأنها كثيراً ما صعَّدت ألحان الابتداع الموسيقي في موجات رنانة كانت تهتز في جوفها قبل أن تملأ الأسماع ! ما أظلم الحياة ! مزهر في سالف الزمن ، وصندوق أصم أبكم في حاضره ! .

هذا التهدم الكبير في « البيان » يدل دلالة قاطعة على إهمال طويل الأجل دون ريب . فقد مضى على بيان « العمة روزالي » عشرون عاماً على الأقل ، لم يتفقد أحد خلالها أوتاره أو يعنى بإصلاح ، ما فسد منها . وليس من شك في أن عمتي روزالي ، وهي العانس ظلت وفية لبيانها مدة طويلة لا تصبر على مثلها كثيرات من العازفات الماهرات ، اللاتي يغلقن آلاتهن في اليوم التالي لزواجهن . ولكن في نهاية الأمر أدركها اليوم الذي تموت فيه المرأة بأمانيها وآمالها إلى غير بعث ، في دخيلة العانس العجوز التي تنصرف بكليتها إلى تدبير البيت دون أي شيء

آخر ــ فكفّت عن مس لمسات البيان العاجية بيديها اللتين شوه داء النقرس شكلهما ونال من مرونتهما منالاً كبيراً .

ونتج عن هذا الإعراض الطويل . أن نسي البيان فن الغناء .

ومع ذلك ، فإني عندما فتحت صندوقه واختبرت أوتاره ومفاتيحه ، ظهر لي أن الخلل ليس عصياً على الإصلاح . رأيت بعض أوتاره مقطوعة ، وبعض المفاتيح في غير موضعها الفني ، ولكني وجدت القطع الأساسية كاملة جميعاً ، فأيقنت أن جودة الصناعة التي عاشت هذه الحقبة الطويلة من الزمن دون أن يصيبها العفاء ، جديرة أن تشرف اسم « إينياس بلييل » الذائع الصيت . ناديت إرما وسألتها :

ــ إرما ، أتعرفين مصلحاً لأوتار البيان في هذه الناحية ؟

فأجابت :

ــ نعم يا سيدي . أعرف مسيو « سان فلوران » الذي يصلح أوتار البيانات في قصور الناحية كلها . إنه رجل بارع في مهنته ، وهو فضلاً عن ذلك قوي إلى حد بعيد . أوه ! إنه موسيقار من الصنف الذي لا تعرفون له أنداداً كثيرين في المدن . وقد أرادت باريس أن تستميله إليها . تعم يا سيدي ،

عرض عليه مال وفير يناسب قوته ليلبي الدعوة التي وجهتها باريس إليه . ولكنه أبى في عناد وإصرار أن يترك هذه البلاد . وهو ضرير مع هذا كله ! ليس عندكم في الشمال مصلحون للأوتار بهذه العاهة كما أعتقد . أنه يقيم في « بوزية Buzet » على بعد أربعة فراسخ منا .

(قاعدة عامة : في كل مرة توصي فيها « إرما » الطيبة . بشخص ما ، حتى ولو كان بائعاً صغيراً رقيق الحال ، فإنها تضفي عليه حللاً من الإطراء الذي يضم بين طرفيه كثيراً من المغالاة ، وتروي عنه قصتين على الأقل لا يقبلهما التصور ولا يثبت عليهما العقل السليم . ولكن أليس هذا هو الشائع المألوف في البلاد الغسقونية الوادعة النضرة) ؟ .

دفعتني معرفتي لهذه القاعدة العامة إلى أن أتخذ في نفسي التحفظ اللازم فيما يتعلق بموهبة مسيو « سان فلوران » التي تجل عن المقارنة ــ وفيما يختص بمبلغ الصدق والدقة في المقترحات التي أمكن عرضها عليه لاجتذابه إلى العاصمة .

ثم قلت لنفسي :

ــ مهما تكن حقيقة الأمر ، فإني لست في حاجة إلى فنان فذ لإصلاح بيان عتيق . إنه من غير شك يشبه كثرة

البيانات التي لا يعودها إلا مصلح الأوتار الضرير هذا في القصور المجاورة .

ورجوت من « إرما » إبلاغ مسيو « سان فلوران » أن أهل « برج الحمام » في حاجة إلى مواهبه . وقد تم لي ما أردت بوساطة الخباز الذي يحقق عن طيب خاطر . رغبات عملائه وجيرته .

مكتبة
t.me/t_pdf

الفصل الثاني

جاء « سان فلوران » في اليوم الثالث ، قبل أن يسدل الليل سدوله بقليل .

رأيت عجلة الخباز تقف بالباب وينزل منها بمعاونة صاحبها رجل في سن مستبهمة ، متوسط الطول ، نحيف القوام ، مقوس الظهر قليلاً ، يرتدي ثياباً سوداء نظيفة ، وعلى رأسه قبعة من القش .

وقامت « إرما » والخباز بإتمام التعارف بيننا في إطار من الأقوال الفخمة المألوفة في تلك البلاد ، ثم مد مصلح الأوتار الضرير إليّ يده مصافحاً ، ورفع في وجهه الخالي من نور البصر ، فرأيت عينيه تطرفان وهما نصف مغلقتين . وما أن أنعمت فيه النظر ، حتى تبين لي أن وجهه في انسجام لونه الباهت وإنتظام قسماته الحادة بعض الشيء الصارخ قليلاً ،

كان يحظى في سالف الزمن، من غير شك، ببعض صفات متميزة وقسط من الجمال. وهو اليوم يذكرنا بنوط كثر استعماله!

وكان شعره لم يزل غزيراً أسود اللون في قمة الرأس وضارباً إلى البياض عند الصدغين وقد بقيت الوجنتان والشفتان ناعمتين تكاد تكون ملساء. وليس هذا بالشيء النادر في تلك البلاد حيث يظهر عنصر الباسك في اختلاط السلالات.

والخلاصة أن لا شيء في هيئة الرجل، إذا استثنينا قسوة عاهته. يستلفت النظر بنوع خاص. وكل ما يقرأه المرء فيها، أثر الحياة المتواضعة الريفية التي تتضاءل وتتلاشى مع كر الأيام والأعوام، والتي تهن حركتها الضعيفة وتفتر شيئاً فشيئاً حتى يدركها الجمود المطلق.

○○○

لما دعوت مسيو « سان فلوران » إلى دخول البيت، مد إليّ إصبعين اثنين من إصابع يده اليمنى، فقدت خطواته الزاحفة حتى أجلسته في غرفة الاستقبال. وعرضت عليه أن يشرب

كأساً تنعشه ، فأبى بادىء الأمر في ألطف صيغ الأدب المعروفة عن الجاسكون ، ولكني الحقت مؤكداً له أن «العمة روزالي» تركت في الكهف زجاجات من « الأرمانياك » اللذيذ المعتق . فقبل أن يشرب منه قليلاً ممزوجاً « بالسكر والماء » ولما أعدَّت « إرما » كل ما ينبغي ، جهز مصلح الأوتار مزيجه بنفسه ، فوضع في الكأس قليلاً من الماء وكثيراً من السكر . ثم أضاف إليهما مقداراً معتدلاً من « الأرمانياك » .

وبينما كان يتناول الشراب في استجمام واستمراء . نظرت إليّ « إرما » بطرف عينها نظرة تقول في أجلى بيان .

ــ الرجل الطيب لا يكره هذا الشراب !

وبدا على « سان فلوران » بعينيه المظلمتين قسمات وجهه المرتعشة وهو مستمر في تناول الشراب ، إنه يبحث عن شيء في الغرفة . وبعد قليل ، وضع كأسه ونهض في بطء وتحسس الفضاء من حوله ، ثم سار إلى الأمام في إنحراف بسيط حتى بلغ البيان العتيق ، فقال مبتسماً :

ــ سبق لي أن وطئت هذا المكان .

ولما أحس مني الدهشة . قال مبتسماً .

ــ لقد كنت في ذلك العهد غلاماً صغيراً لم أبلغ بعدُ

صدر الشباب ولكني كنت قد بدأت في تلك السن أصلح أوتار بعض الآلات هنا وهناك ...

ثم وضع يده على المفتاح وفتح البيان في خفة عجيبة ، وشرع يختبره . وتكاثف الظلام ، وليس في الغرفة مصباح ، فكان المنظر عجيباً فريداً : منظر ذلك الرجل بثيابه السوداء ، وهو يفحص في ظلمة الليل ، الأعضاء النغمية لبيان مريض في الخمسين من عمره !

تركته منهمكاً في عمله ... ولم أره ثانية إلا عند تناول العشاء . ولما بلغنا المائدة ، أجلسته قبالتي عن عمد ، وقد سرني أن أجالس ضيفاً بعد وحدة طويلة .. ثم أليس كل كائن بشري ، مهما يكن ضئيل الشأن ، عالمَاً زاخراً بالأسرار قميناً بأن يلهب تشوّف كاتب قصصي ؟

قال « سان فلوران » وهو يجلس إلى المائدة :

ــ بيانك جيد يا سيدي . ولكني في حاجة إلى يومين كاملين لأجعله في الحالة التي ترتضيني .

فأجبته :

ــ لك ما تشاء ! في هذا البيت غرفة رهن أمرك . ولشد ما يسعدني أن أضيفك يومين في « برج الحمام » .

وبعد قليل ، تملكت ذاكرتي أقوال « إرما » عن براعة هذا الرجل ؟ وعن الفرصة التي سنحت له فترة من فترات حياته للذهاب إلى باريس ، فحاولت جهد المستطيع أن أحصل على **أسرار ضيفي القلبية، بالتحدث إليه عن باريس والحفلات** الموسيقية الكبرى ، وبعض عازفي البيان الذين نالوا أوفر نصيب من الشهرة في هذا العصر .

ولكن حديثي كله قوبل من « سان فلوران » بصمت بليغ في الدلالة على عدم الاكتراث التام . وحتى أسماء مشاهير العازفين الذين ذكرتهم ، لم يبد عليه أنه يعرفها . وكان من حين إلى آخر يهز رأسه ويقول :

ــ بلا ريب ... من غير شك ... عندكم في باريس خير ما يمكن أن يجده المرء .

ولم أنجح في الحصول منه على شيء آخر ... على أنه أمام ذلك أظهر اهتماماً عظيماً بمشروعي الخاص باعادة احياء الكروم التي خلفتها « العمة روزالي » وأخبرني . أنه هو نفسه يمتلك في بوزيه Buzet هكتارين من الأرض التي تنتج العنب ، وأنه استأنف زراعتها وبدأت الأغراس تنتج نتاجاً طيباً . غير أن أمراض النبات أتلفت المحصول ولم تبق على شيء منه .

وأسهب الرجل في هذا الموضوع ، وفي شرح هذه الأمراض تفصيلاً ، ولم يكن لينتهي من الحديث فقلت لنفسي :

ــ حقاً لقد بالغتْ « إرما » كعادة الجاسكون ! إن مصلح الأوتار هذا غبي أبله. كل ما يهمني ألا يدمر بياني تدميراً.

ولم أعدل عن رأيي بعد أن تناولنا طعام الأفطار في اليوم التالي . ولما أقبل المساء . نزلتْ « إرما » إلى الكهف الذي تعرف وحدها خباياه معرفة جيدة . وحملت إلينا منه زجاجتين من نبيذ بوردو المعتق .

تذوق « سان فلوران » الشراب وأعجب به غاية الإعجاب ثم طفق يتحدث من تلقاء نفسه عن الموسيقى . ونسي قليلاً أمراض العنب . وأمعن في حديثه إلى حد أنه وجه إليّ سؤالين أو ثلاثة عن تمثيل مسرحيات « فاجنر » الموسيقية في دار الأوبرا بباريس . وقال :

ــ كان بين يديّ كراسة ألحان « أساتذة الغناء » وقد وجدت فيها جمالاً جمالاً رائعاً حقاً ... وكنت أتمنى من أعماق قلبي أن أعرف ما بقي مجهولاً لديّ ... ولكن ماذا أصنع ؟ في هذه البلاد النائية المغمورة ، لا يستطيع المرء أن

يحصل على شيء ... ثم كان متمناي أن أبتاع الكراسات مرتبة على طريقة « برايل » ... قد يكون الحصول عليها مستحيلاً لنفادها . لست أدري ... ولكنها على كل حال غالية الثمن جداً بالنسبة لطاقتي المالية .

ولما فرغنا من تناول الطعام وشرعنا ندخن . ملأت له كأساً ثالثة من الأرمانياك . وبعد صمت وجيز أخذ يحدثني عن أيام طفولته ، ويذكر لي أن قسيس « بوزيه » الذي توفي منذ ثلاثين عاماً هو الذي علمه مبادىء الموسيقى . ثم قال :

ـــ عندما فهمت البيان وتركيبه فهماً دقيقاً . استطعت بعد مرور وقت قصير . أن أعزف عليه عزفاً ملائماً مستساغاً . وكانت ذاكرتي الموسيقية من القوة والجودة بحيث أستطيع أن أوقع بدوري أية قطعة متى عزفت أمامي مرتين . دون أن أغير فيها إلا قليلاً تغييراً لا يذكر ... وكنت دائماً أغير بالرغم مني . وما أن بلغت العشرين من عمري ، حتى صرت حقاً عازفاً غريباً بعض الغرابة ... جمعت الأغاني الشعبية كلها المنتشرة في ريفنا . وهذبتها كما حلا لي أن أفعل ... كثير من الناس أحبوا ما صنعت ...

سكت « سان فلوران » . وبدا لي أن سحابة من

سحب الاكتئاب غشت وجهه كله . فأكسبته الشباب ، وفي الوقت ذاته سمة من سمات النبل ، ولم يعد الرجل البسيط الساذج الذي ينفق وقته في اصلاح آلة ذات أوتار أو المالك الصغير الذي يروي تاريخ دويبة العنب ويشرح أمراض الكروم ! بل كان الفنان الذي يستحضر في حافظته الفترة المقدسة المباركة التي استولى الفن فيها عليه وملأ حياته سحراً وروعة .

فهل كانت « إرما » إذن على حق فيما قالت ؟ وهل مست ريح المجد حقاً هذا الضرير ؟ .

لم أستطع في ذلك المساء أن أقف من « سان فلوران » على أكثر مما سمح به ، إذا عد ما أفضى إلي به تلميحاً عن ماضيه الفني كافياً من غير شك لإرضاء رغبته في الإفضاء الي . ولم يزد كلمة إلى ما قال ، ولم يرد على أسئلتي إلا بعبارات مقتضبة واهية الرباط تُشعِر بعدم الإهتمام بالحديث . ولم يلبث أن سألني الأذن . والليل ما يزال في مدارج الطفولة في أن يصعد إلى غرفته مدعياً أنه تعب .

وذهبت أنا نفسي إلى غرفة نومي إذ كنت مضطراً للنهوض في اليوم التالي عند بزوغ الفجر لأذهب إلى مزرعة كبيرة في الأرباض . لأرى محراثاً غواراً من طراز حديث . يجرب في أرضها للمرة الأولى .

الفصل الثالث

استغرقت رحلتي الجزء الأكبر من النهار ، لأن المالك الذي ذهبت إليه ، استبقاني في إصرار وإلحاح لتناول طعام الغداء معه . وقد شعرنا بشهوة حادة إلى الغذاء بعد أن قضينا خمس ساعات في الهواء الطلق ، فأكلنا وشربنا كثيراً ونحن نتجاذب أطراف الحديث ، أنا ومضيفي ، وهو شيخ قوي في الخامسة والستين من عمره ، ذو شارب أشعث يكاد يغطي شفتيه ، ثم سألته عن مصلح الأوتار الضرير ، فقال في بسمة ماكرة :

ـــ أتعني « سان فلوران » ! ... « سان فلوران » الصغير ! ... إني أعرفه منذ كان فتى في شرخ الصبا .. وطالما أدخل التبلبل والاضطراب على رؤوس السيدات في قصور هذه البلاد برأسه وسحنته المنحوتة وموسيقاه ! إنه ما يزال إذن على قيد الحياة ؟! لم أره منذ زمن طويل .

أردت أن أحصل على تفصيلات أخرى ، ولكن ظهر لي أن محدثي الكريم لا يعرف أكثر مما ذكر . فقد كان « سان فلوران » جميلاً .. وكم استهوى « سان فلوران » ! نساء بموسيقاه ولم يخرج مضيفي عن هذا الإطار . وقد تبينت في جلاء أنه يزدري الموسيقي و « سان فلوران » إلى حد كبير .

وعدت إلى « برج الحمام » في نحو الساعة الثالثة بعد الظهر . وكانت أشعة الشمس تغمر البيت الصغير الهادىء ، وهي ما تزال شديدة الحرارة على الرغم من تقدم الفصل في دورة الزمن . وكانت النوافذ الحمراء (لحجب الهواء) مغلقة جميعاً كما تقضي بذلك عادة البلاد ، فلا يتسرب من خصاصها إلا ظلال تستقر في الغرفات رقيقة رطبة .

وبينما كانت المركبة الريفية التي أقلتني تهم بالعودة إلى المزرعة التي كنت في زيارتها . ولجت الردهة الصغيرة التي تلي الباب مباشرة . وفي الحال وقفت مأخوذاً مشدوهاً فقد سمعت نغمات تسعى إلي من غرفة استقبال « العمة روزالي » يخفف من قوتها في أذني بعد المسافة والأبواب المغلقة التي تقوم بيني وبين تلك الغرفة ولكنها كانت تملأ أرجاء البيت العتيق ، وتهتز في جوه الصامت . كانت لحناً ، أو بتعبير أدق ، ألحاناً متتابعة متعانقة ،

تذكرت في غموض أني سمعتها في طفولتي .. ألحاناً شعبية جسكونية ، يعزفها مهذبة نامية ، فنان صَنَاع منقطع النظير لم أسمع مثله طوال عمري ... هذا على الأقل هو الشعور الذي استولى علي في تلك اللحظات ... قد يكون للتعاون المستبهم بين ظلال البيت الرطبة المنعشة ونشوة يوم مشمس وسماع هذه الموسيقى المباغت ، أثر قوي في أعصابي نبه حساسيتي وأرهفها .

دنوت من غرفة الاستقبال في خفة بالغة ، وفي خطى لص حريص حذر ، خشية أن أزعج سمع ، « سان فلوران » الدقيق إلى حد يبعث على الدهشة .

دخلت غرفة الطعام المجاورة لهذه الغرفة وجلست على أول مقعد صادفني ، وأصغيت .

لقد صفقت لأساتذة في الفن أمثال « ديميه Dièmer » و « بادريفسكي Paderevwski » . وهم يعزفون أمام نظارة من الصفوة النخبة ، على آلات منتقاة صنعت خاصة لهم ... إني أستميح هؤلاء الأساتذة النابهين عذراً وعفواً ! لم يستطع أحد منهم أن يخلق في نفسي شعور الابتهاج الموسيقي العظيم الذي غمرني في تلك الساعة ، وأنا أصغي من خلف الباب إلى رجل

كفيف البصر خامل الذكر من أهل الريف ، وهو يعزف لنفسه وحده على بيان معتل عتيق ...

تجلى الجمال الشعري الذي حبت به الطبيعة بلادي الجسكونية في هذا الارتجال الفني البديع الذي يتمثل في اكتئاب حيناً ، وفي قوة وتدفق وجموح حيناً آخر ، جمال أيام الصيف المشمسة وفضلها على الزرع والحصاد ، ويصور النشوة الفياضة التي تتملك النفوس عند جني الأعناب وعصرها ، وسير الخريف البطيء الذي يصيب أشجار الحور بالاصفرار وأشجار السنديان بالعرى ، ويكسب الكروم منظر بساط شرقي فاتن ...

وتمثلت لخاطري حينئذ صورتي حينما كنت طفلاً خالي البال من كل هم ، أقضي أيام العطلة عند « العمة روزالي » ، وأسير خلف المحراث فرحاً ، وأتطلع إلى الطير في الفضاء ، وأساعد في حصاد القمح مبتهجاً ، وأقتطف عناقيد العنب الضاربة إلى لون البنفسج .. وتذكرت شعوري ، والاضطراب الذي يصحب أفكار الحب الأول في سن العشرين ، وهي أفكار أكثر عذوبة وأشد فتنة من دفء الصباح .. ومرت بنفسي أحزان الحياة التي تعدو وتمعن في العدو إمعاناً عجيباً ابتداء من سن الثلاثين ، وجميع حالات التخلص من سحر الرغبات التي رويت

وأرضيت ، وغصص الرغبات التي لم تجد ما يشبعها ... كل هذا مر بنفسي وبخاطري مع تنوع الألحان التي كان يعزفها « سان فلوران » ــ كل هذا حتى الميل الشديد إلى الراحة الأبدية في أحضان الموت ، هذا الميل الذي يغزونا أحياناً في الوحدة ، ويستبد بنا استبداداً لا قِبَل لنا بالنجاة من سلطانه ، أمام تفاهة الحياة وكذبها ...

كف البيان عن إرسال نغماته منذ وقت ليس بالقصير ، ولم أكن قد عدت بعد إلى حقيقة الأشياء ... ولما نهضت عن مقعدي ، لم يعد يصدر عن غرفة الاستقبال حس أو نغمة .

ففتحت باب الغرفة في هدوء ورفق ، وكان الظلام يخيم عليها ، فتوجهت إلى إحدى النوافذ وفتحتها ، فاقتحم المكان الضوء الدافىء دفعة واحدة .

رأيت حينئذ مصلح الأوتار الضرير جالساً إلى البيان وكان مغلقاً .. رأيت « سان فلوران » مستنداً إليه كما يستند إلى منضدة ، ورأسه بين يديه وهو جامد في جلسته لا يتحرك ، فدنوت منه ولمست كتفه في رفق وأنا أنطق باسمه ، فالتفت إليّ ، وظل بعض لحظات ذاهلاً كأنه استيقظ بغتة من نوم عميق ، ثم قال في اضطراب وتلعثم :

ـــ آه ! هذا أنت ، يا سيدي ! لم أكن أتوقع مجيئك الآن ! لقد أخبرتني « إرما » إنك لا تعود إلا في المساء فأجبت :

ـــ كنت هنا على مقربة منك في غرفة الطعام ، وقد مضى علي ساعة أو نحوها وأنا أصغي إليك ! إنك فنان كبير يا مسيو « سان فلوران » !

فصاح قائلاً في قلق واستياء :

ـــ آه ! كنت هنا ! وكنت تسمع ! كان ينبغي أن تنبهني ! كان ذلك واجباً حقاً !

ثم أشرب صوته نغمة الرجاء والتوسل ، وقال وهو يدني وجهه مني :

ـــ لن تقول إنك سمعتني ! لن تقول ذلك لكائن من كان ! أليس كذلك ؟ لم يعد العزف من عادتي . أني أرفض دائماً ، وفي هذه المرة ، كنت على يقين من أني بمفردي في البيت فلم أدر ما الذي ألم بي وملك عليّ نفسي ودفعني إلى العزف ؟ ولكن هذا لا يحدث لي إلا في القليل النادر ، أؤكد لك !

ثم بدا عليه ما يدل على اعتذاره ، وانتشرت على سحنته سمة طفل بوغت وهو يرتكب خطأ ، فشعرت بأن المصادفة قد

وفقتني إلى أن أضع أصبعي على موضع الألم في هذا العقل العجيب .

أمسكت بيديه اللتين كان يحركهما في اضطراب وعن غير وعي وهي على سرواله الأسود ، وقلت :

ــ ألق بالك إلي يا مسيو « سان فلوران » . هيأت لي الظروف فرصة أومن فيها بأنك عازف بيان فذ ، وليس في هذا ما يستحق أن يزعجك ويؤثر في هدوء أعصابك . إذا شئت أن يظل الأمر سراً وأن يغيبه النسيان في تضاعيفه ، فكن مطمئن البال من هذه الناحية ! ولن أقول عنه شيئاً . فإني لا أقيم في هذه البلاد ولا أتصل بأهلها إلا قليلاً ! وفضلاً عن ذلك فإني قد عاهدتك على الكتمان ! لماذا لا يروق لك أن تطمئن إليّ الاطمئنان كله ؟ ثق بأني لست مدفوعاً بأي تشوف مبتذل ، ولكني أود لو أعلم منك لأي سبب غريب تقبر نفسك في هذه البلاد المغمورة ، وتفني حياتك في إصلاح أوتار بيانات عتيقة ، على حين أن مواهبك التي تتجلى في العزوف وفي وضع القطع الموسيقية ، تضمن لك في باريس مكانة تحسد عليها ؟ ليس من حقي التهجم على سرك وأني أسألك الصفح عن هذا ــ ولكنك منذ هنيهة ، أثرت في نفسي تأثيراً شديداً ، جعلني أشعر نحوك

بالشكر والصداقة معاً . وإذا كان في وسعي أن أقدم إليك أية معونة ..

شد الرجل على يدي ونكس رأسه ، ثم قال :

ـــ ما أطيب قلبك يا سيدي ! أبسط عليّ جناح عفوك إذا كنت لم أستقبلك عند دخولك منذ قليل بما يليق من اللطف والبشاشة . ما أن تمر بخاطري أفكاري القديمة ، حتى أنسى كل شيء سواها أثناء فترة طويلة ، وهذا معروف جيداً عني في بيتي . فإذا سبحت في اكتئابي تُركت هادئاً حتى أخرج من هذه اللجة ، وهذه الحالة تنتهي دائماً بسلام . تقبل عذري يا سيدي .

ـــ أقبله من غير شك . ولكن أترفض ما عرضته عليك من أن أسعد باريس بمواهبك ؟

فهز رأسه وقال :

ـــ نعم أرفض يا سيدي . لقد عرض علي هذا في سابق الأيام حينما كتب شاباً متوقداً وفناناً حقاً ، فرفضت . ولن أقبل اليوم وقد تقدمت بي السن وتداعت قواي وفقَدَت أصابعي نشاطها ومرونتها .

وسكت قليلاً ثم قال مغمغماً :

ـــ وفضلاً عن هذا ، فإني وعدت !

فسألته :

ـــ بماذا وعدت ؟

فأجاب :

ـــ بأن لا أغادر هذه البلاد أبداً .

وبعد صمت لم يطل ، عاد يقول :

ـــ أصغ إلي يا سيدي . لا أريد أن أقابل بالجحود ما غمرتني به من العطف والكرم ، وعلاوة على هذا ، فأنت كاتب كما قيل لي ، وتفهم من غير شك أشياء يستعصي فهمها على أهل هذه البلاد . تسألني قصة حياتي ؟ سأرويها لك في إيجاز . إنك تنشر كتباً ، ويمكنك أن تسرد فيها قصة مصلح الأوتار الضرير ، إذا رأيت أنها تستحق النشر . وكل ما أرجوه منك أن تغير اسمي ، فلنذهب إلى الشرفة إذا شئت فالهواء الساعة رخي منعش ، وهناك نكون أكثر راحة وحرية مما نحن في هذه الغرفة ، وأكون أكثر تأكداً من أن حديثي لا يسمعه إنسان سواك .

○○○

الفصل الرابع

لما استقر بنا المقام في ظل إحدى شجرتيّ المانوليا ، شرع « سان فلوران » يروي قصته على هذا النحو :

ـــ ولدت في « بوزيه » يا سيدي ، في البيت الذي ما زلت مقيماً به إلى يومنا هذا . وقد ورثته عن والدي اللذين كانا صانعي سدادات من الفلين فقيرين . ولم يبق في مخيلتي من ذكريات طفولتي الأولى غير هذه الصورة : قطع كبيرة مستطيلة من الفلين ملقاة بعضها فوق بعض على مقربة من الباب ، الذي كان يظل في أكثر الأوقات مفتوحاً يطل على خضرة الريف وزرقة السماء ، ويدع أشعة الشمس تدخل البيت وتنشر في أرجائه الدفء والنور . وهذه الصورة أيضاً هي الوحيدة تقريباً التي أحفظها إلى اليوم عن العالم المرئي . أما ما عداها من الصور فقد غام واضطرب ثم سطا عليه العفاء من أعماق ذهني .

لست في حاجة إلى القول إني كنت مبصراً ، ظللت أرى الناس والأشياء إلى أن بلغت التاسعة من عمري . كنت صبياً عربيداً مماثلاً للصبية الآخرين الذين تذوقت معهم طعم المرح الصاخب الماكر في الطرق والحقول ! أكاد ، أنا نفسي لا أصدق ذلك اليوم . إنها ذكريات بعيدة عني كل البعد ! وليس مأتى هذا البعد مرور الأعوام فحسب ، وإنما جميع الأحزان والمحن والآلام التي عانيتها منذ ذلك العهد !

كنت كما ترى ريفياً صغيراً كثير اللعب ملحوظ الشغب كغيري من اللدات والأتراب ، وأؤكد لك اني لم أكن أفكر البتة في الموسيقى حينذاك . ولم تخامرني إلا فكرة واحدة : هي أن أزاول صناعة أبي ما أن تسنح لي فرصة التخلص من المدرسة التي أُرسلْتُ إليها مرغماً .

وكان من الجائز أو المرجح أن تحبس حياتي على هذه المهنة . لولا حادث لا أجترىء على اعتباره نكبة على الرغم من قسوته : حقاً لقد كان السبب فيما قاسيت من عذاب أليم ، ولكنه كان السبب أيضاً في استمتاعي بأجل وأسمى ما يُستمتع به في هذا العالم .

أصبت بالجدري وذهب المرض ببصري ...

وبعد هذه الأعوام التسعة الأولى ، التي تعتبر في الواقع وفي اعتقادي شخصياً ، مستبهمة زهيدة القيمة خالية من المعنى ، فتح في ذكرياني ثقب كبير أسود . وكل ما أذكر . هو أني رقدت ذات مساء أتوجع وأهذي من شدة المرض ، ثم أسدل ستر بين الضوء وبين عيني لم يرفع بعد ذلك قط . وبعد انقضاء أسابيع طويلة ، أدركني النقه ثم الشفاء التام ؛ ولكن عيني لم تبصرا شيئاً مما يحيط بي ، فاعتقدت بادىء الأمر أن كابوس الهذيان لم يزل متسلطاً علي .

قد لا تصدق يا سيدي أن هذا الرزء الفادح لم يؤلمني كثيراً ، فالطفولة تتعود كل شيء وتألف كل حالة . وأنها لسعادة نسبية في شقائي أني فقدت البصر في تلك السن المبكرة . فطالما لاحظت أن الذين ألمت بهم هذه المصيبة في مثل سني ، احتفظوا عادة بروح المرح والألفة والذين فقدوا أبصارهم بعد سن الثامنة عشرة أو العشرين ، لا يتجملون بالصبر على ماصابهم أبداً ومن أجل هذا ، ظللت بعد وقوع الخطب كما كنت قبله ، كلفا باللعب مسرفاً في اللهو . وقد عبَّد لي سبيل التمادي في عبثي ، أن والدي وقد ازداد عطفهما علي ورثاؤهما لحالي ، لم يعد لديهما الشجاعة لإخضاع مزاجي الجموح المختل لأية قاعدة أو نظام ،

فوجها اهتمامهما إلى مراقبتي قدر الاستطاعة ليجنباني الحوادث وما يترتب عليها من نتائج . وكان حبهما لي شديداً ، وعلى الأخص أمي ، فإنها كانت تفضلني على أختي التي تكبرني في العمر ، وقد تزوجت شقيقتي هذه وما تزال تقيم معي في « بوزيه » .

وذات يوم حضر لزيارة والديّ قسيس القرية ، وهو رجل طيب القلب وموسيقار لا بأس به ، كان يصحبني إلى الكنيسة لأرتل بعض الأناشيد الدينية .

وقال لهما بعد أن استقر به المقام .

ـــ أتعرفان أية فكرة تجول بخاطري ؟ لهذا الصغير أُذن دقيقة وحافظة قوية ، وينبغي أن نجعل منه موسيقاراً . ولقد علمته العلامات الموسيقية ، ولكن ليس في هذا الغناء كله . أتريدان أن أنهض بأمره ؟ إني لكبير الأمل في أني لن أعجز عن الحصول على معونة بعض سيدات خيِّرات محسنات يأخذن على عاتقهن نفقات تعليمه ، وسيكون بعد وقت قصير في حالة تمكنه من كسب عيشه .

وافق والداي على فكرة القسيس ، وأخذت في انتظام ومثابرة دروساً في قواعد الغناء وتناسق النغمات . وكنت أتعلم إلى

جانب هذا صناعة إصلاح الأوتار حتى تكون في يدي حرفة ثابتة مأمونة تكسبني القوت إذا عجز الفن وحده يوماً عن سد حاجتي والقيام بأودي . وكان أستاذي في التلحين يعرف طريقة « براي » في تسجيل القطع الموسيقية ، فعلمني إياها . ثم حصلت بفضل السيدات الخيرات أيضاً على مختارات عظيمة لبعض الأساتذة الأعلام مكتوبة بالنقط ، ولولا عطفهم المشكور لما استطاعت مواردي كتلميذ فقير أن تسمح لي باقتناء هذه الكنوز .

أصبحت عازفاً بارعاً إلى حد مرضٍ ، أعرف كيف أعالج أي لحن كائناً ما كان وأنميه وألائمه مع قواعد الفن السمفوني وخصائصه .

ومع هذا كله . لم أكن إلا تلميذاً نجيباً لما بلغت السادسة عشرة من عمري . قد يصعب عليك أن تصدق اليوم يا سيدي أني كنت فرحاً طروباً إلى أقصى حد . وكنت أبحث في كلف شديد عن الاجتماع بالشبان الذين يماثلونني في العمر ، وفي أكثر الأحيان كنت الصفيّ المختار في الاجتماعات المختلفة ، فلم يكن يعقد اجتماع فرح دون أن أكون أحد أركانه الأساسية .

وإني لأجهر كذلك بشيء أكثر غرابة مما ذكرت ، أنا

الذي لا يهتم اليوم بكل ما يحيط به ، والذي يسير في الحياة كما لو كان قد أصيب بآفة مضاعفة ، مادية وأدبية . كنت في ذلك العهد البعيد أتصيد الأخبار في لذة قوية ، وأشعر بميل عنيف إلى معرفة ما يجري في المقاطعة وفي باريس نفسها من الحوادث السياسية والعملية . وعلى كل حال فإن هذا هو ميلنا الطبيعي الخاص بأمثالي المنكوبين وهو يدفعنا بكل ما فينا من تشوف وما نملك من جهد إلى الاتصال الوثيق بالحياة العامة التي تقصينا عنها عاهتنا بحكم طبيعتها فيما يظهر .

وما آن بلغت السابعة عشرة من عمري حتى رزئت بفقد أمي ، فشعرت بألم عميق ، هو الأول من نوعه في حياتي دون ريب : أما الآفة فقد أصابتني في طفولتي ، ولهذا لم يكن للخطب في نفسي إلا أثر صدمة عنيفة أذهلتني بعض الوقت .

جاء هذا الحزن فكشف لي حقاً وللمرة الأولى عن قسوة القدر وفظاعته ، ونشأ عن ذلك أن أصبح كل اجتماع ثقيل الظل على نفسي إلى درجة لا تحتمل ، ولم يعد يرضيني غير مجالستي لبياني أبثه حزني وأستودعه آلامي وكان يخيل إلي أنه يجيبني بصوت العجوز المتوفاة العزيزة عليّ . ومنذ ذلك الحين فقط ، أخذت أتقدم رويداً في استيعاب الموسيقى حتى صرت فناناً حقاً .

وكل ما كنت أعزفه آلياً إلى ذلك الوقت بفضل استعداد غير شعوريّ بدا من أذني وأصابعي . اتخذ بعد موت أمي روحاً تجلت لروحي وهدتها .

تذوقت شعر أعلام الفن وأساتذته ، واستطعت أن أتتبع فكرتهم الموسيقية والشعرية خلال مراحل نموها وازدهارها ، وأدركت الصلة المستغلقة التي تتوثق بين الأصوات النغمية وبين عواطف القلب الإنساني من ناحية ، وبينها وبين صنوف الحساسية التي تشعرنا بها الطبيعة من ناحية أخرى : كهدوء أمسيات الصيف وثورة العواصف ، والرنين الصافي الذي يصحب أيام الجليد . وفضلاً عن ذلك يا سيدي ، فإن الأصوات حلت عندي آخر الأمر محل البصر إلى حد بعيد ، إذ أن الأصوات والألوان تتجاوب في الطبيعة وتتوافق من غير شك ، فأمسية ثقيلة من أمسيات الصيف ليس لها الصوت نفسه الذي ينبعث من ليل هادىء من ليالي شهر ديسمبر . ومع ذلك فكلاهما يبدو لكم صامتاً ، أنتم معشر المبصرين .

والخلاصة أن فني نفذ إلى أعماق نفسي ، فاستطعت قليلاً قليلاً أن أباغت أسراره وأستوعبها .

كانت تلك الفترة من حياتي جميلة ، إذ شرع أصحاب

القصور القريبة منا يستدعونني في إصرار ورغبة خالصة ، لا لإصلاح الأوتار فحسب وإنما لإحياء الليالي . ولم أكن أرفض العزف إلا في الحفلات الراقصة ، لأني لا أميل ألبته إلى موسيقى الرقص ، وعندما أعزف أكون من دقة الحس والتنبه لكل نغمة بحيث يزعجني وقع أقدام الراقصين ، فأعجز عن مواصلة العزف عجزاً تاماً . ولكن الناس على الرغم من ذلك ، كانوا يستمعون لعزفي في بشر وابتهاج ، سواء أكانت القطع التي أعرضها على سمعهم من وضع الأساتذة النابهين أو من وضعي وتصنيفي وكنت أحاول بوسعي أن أصور الطبيعة في قطعي الخاصة كما تكشف لي عنها التأثيرات الحسية التي أصبحت ترشدني منذ ذلك العهد ، إذ أن ذكريات طفولتي حينما كنت أبصر كالآخرين ، لم يعد في طاقتها تغذية إلهامي بالقدر الكافي . وإنك لتفهم هذا يا سيدي في سهولة ويسر . كانت هذه الذكريات في أغوار ذهني كخيال ضائع بعيد يوشك أن يزول ، وقد حلت عندي ضروب اللمس ومختلف الروائح وتعاقب الحرارة والبرودة والأصوات الكثيرة المتباينة التي تصدر عن الأشياء ، محل الدلالات البصرية . ويظهر أن تعبيري الموسيقي عن هذه الأشياء لم يكن بعيداً عن الدقة والصواب ، لأن الذين استمعوا لفني قالوا

إنهم وجدوا في أعمالي الموسيقية وطبقاً لإلهامي، جلال منظر الشمس وهي تجنح إلى المغيب أو عذوبة ضوء القمر التي تشع في النفس الاكتئاب الهادىء الوادع: وجدوا جميع الأشياء التي لها معنى عندي ولكنها لم تعد تتجاوب اليوم مع صور واضحة مميزة!

أصبتُ يا سيدي كما يتبين من قولي نجاحاً ملموساً في أقليمنا يكاد يكون مجداً صغيراً. وأزيد إلى ذلك أني لم أكن في نظر الناس قبيح المنظر أو دميم الخلقة. ولا تحسبن أن للزهو أو الأثرة يداً فيما أذكر خصوصاً وأن جمال الوجوه من التصورات الذهنية التي يصعب إدراكها على شخص مثلي كف عن أن يراه في سن نكون فيها غير أهل بعد لأن نكوّن رأياً أو نصدر حكماً في شأن هذا الجمال.

ولكني أعتقد أن آفتي نفسها استدرت الشفقة عليّ، ثم تحولت الشفقة في سهولة بفضل شبابي إلى ميل عاطفي إلي. ولقد أكد لي كثير من الناس « أنها لا تستلفت النظر ».

وفي الحق، لم يكن بعينيّ شيء يشذ عن المألوف غير ثبات النظرة وجمودها الدائم. ومع تقدم العمر وتراكم الهموم، أخذت جفوني تطرف وتضطرب، وأصبح بياض العين فيما يظهر أشبه ما يكون بالزجاج، وهذا من شأنه أن يستلفت

الأنظار إلى بؤسي الطبيعي .. ثم أني أهملت نفسي ولم أعد ألقي بالي إلى ما يجمّل !

وما أن نطق « سان فلوران » بهذه الكلمات الأخيرة ، حتى سكت وطال صمته ، وكاد الصمت أمام هذا الرجل الغريب يثقل على صدري وينال من جلدي ، ولكنه عاد يصل ما انقطع .

ــ أتعرف يا سيدي على بعد عشرة فراسخ تقريباً من « برج الحمام » هذا وفي طريق (ريؤب Reaup) ، قصراً يقوم وسط غابة من الصنوبر يسمى « الباجورو » ؟ إنه من أروع الممتلكات في هذه البقعة ، ولكن هؤلاء الذين يستمتعون بنور أبصارهم يقولون إنه يبعث في النفس بعض الحزن بسبب أشجار الصنوبر الكثيفة التي تحيط به من كل جانب إلى مسافة بعيدة .

وقد أصبح هذا القصر اليوم ملكاً لقوم من أغنياء « بوردو » ، لا يقضون فيه إلا أيام الصيد من كل عام ، وقد استدعوني جملة مرات لإصلاح بيانين فيه ، ولكني لم أجد في نفسي القوة على إجابة الدعوة والعودة إلى زيارة القصر . ويخيل إليّ أني إذا اجتزت عتبته ، فقدت الوعي في الحال ، ذلك لأن حياتي

كلها أو الفترة الوحيدة من حياتي التي استحقت الحياة، حياة قلبي . استمدت روحها من هذا القصر ..

○○○

سكت « سان فلوران » مرة أخرى بعض لحظات ، ولكنَّ شفتيه استمرتا تتحركان كما تتحرك الشفاه متمتمة أثناء الصلاة ، فاعتقدت ، وقد رأيت انفعاله يزداد ويعنف ، أنه لن يستطيع إتمام قصته . ومن أجل هذا ، أدركت بشعوري أن أية كلمة غير موفقة قد تجفف فجأة معين مسيرته .

وبعد قليل صَعَّد تنهدة عميقة وتنفس بشدة هواء الريف الرضيّ المنعش ، ثم قال :

ــ في ذلك الوقت الذي أحدثك عنه ، كان قصر « الياجورو » ملكاً لرجل اسمه « دسكاربي D'escarpit » . وكان يقيم فيه مع زوجه ، وهي امرأة في مقتبل العمر ورونق الشباب ، ولكنها لم تعقب . وأقول « يقيم فيه » على سبيل المجاز ، لأنه لم يكن يبيت فيه إلا ليلة واحدة في الأسبوع على الأكثر ، وكان هذا الرجل مولعاً بشيئين : الصيد والميسر ، كلفا

بشيء ثالث أشد أيلاماً لزوجه منهما : أعتقد أنك تفهم ما أرمي اليه . فقد كان أكبر زير نساء في هذه البلاد ، وكانت النساء جميعاً مقبولات لديه ، فهو يشتهي فتيات « بوردو » و « آجان » كما يشتهي فلاحات غابات السرو والصنوبر في أقليمنا . وأنك لتدرك من طريق الحدس والتصور نوع الحياة التي كانت تحياها مدام « جولي دسكاربي » في مثل هذه الظروف والأحوال .

كانت هذه السيدة فرنسية الأصل مارتينيكية المولد ، وأهاها مسيو « دسكاربي » ذات يوم في مدينة بياريتز ، حيث كانت تقضي شطراً من الموسم مع أسرتها ، فخطبها وتزوجها وكان والداها متوفيين ، فهي تنفق أيامها وحيدة في القصر الكبير الموحش ، ولا يقع بصرها إلا على غابة من الصنوبر لا حد لها ولا نهاية تحيط بها من كل جانب ، فلم تجد لها متنفساً من الهم غير البكاء المستفيض . وكانت بنيتها بطبيعتها رقيقة قليلة الاحتمال ، فتداعت صحتها وأعلن الأطباء بعد فحصها أنها تعاني مرضاً في القلب ، ومن الممكن أن تعيش إذا توفرت لها حياة هادئة خالية من ضروب الانفعال .

وكانت حياتها هادئة في ظاهرها . ولكن زوجها لم يجنبها ألوان الانفعال المتباينة . كانت تصر كل مساء على انتظار أوبته

لتراه يتناول طعام العشاء في بيته ويبيت في فراشه . وكانت ترهف السمع حتى إذا بلغ أذنها صوت عجلات أو وقع حوافر جواد . مهما يكن الصوت خافتاً ضعيفاً ، تهرع إلى فناء القصر وهي تلهث من الانفعال وتزفر من الغيظ . ولم يكن مأتى هذا حبها لزوجها المعوج المسلك . بل كان مأتاه غيرتها البالغة حد العنف الأليم . وكانت تشعر بالإهانة التي ينطوي عليها اهماله إياها شعوراً قوياً حاداً كما لو كانت تحب حقاً .

ولم تسمح لها أنفتها بأن تنفض إلى أحد من الناس أمر هذا الإهمال ، ولم تعترف به لنفسها إلا لماماً وفي همسات خاطفة. ورويداً صدفت عن الإجتماع بجاراتها وازداد زهدها في صلاتها بهن يوماً بعد يوم ، ليس فقط لأنها كانت تنظر بعين الشك والحذر إلى هؤلاء اللاتي كن يظهرن لها الود والصداقة ولا تنحرج كل واحدة منهن عن خيانتها والغدر بها إذا سنحت الفرصة ، ولكن أيضاً ، وعلى الأخص ، لأنها كانت تعتقد أنها تستشف من وراء أقوالهن وطريقة استقبالهن ومعاملتهن وحركاتهن في حضرتها إشفاقاً يدمي شعورها ويحز في نفسها . وكانت النتيجة أنها آثرت العزلة المطلقة ، وأغلقت بابها دون الزيارات جميعاً . وأنت تعلم يا سيدي أن الجماعة في ريفنا لا تغفر أبداً لأي

إنسان إعراضه عنها وقدرته على احتمال العيش بعيداً عن مجالسها .

ونجم عن ذلك أن ضعف العطف عليها رويداً . وأخذ الرثاء لحالها يقل ويتضاءل ، وأصبح يقال عنها كذباً وبهتاناً إنها غريبة الأطوار مختلة الأعصاب ، ثم غدت هدفاً للتندر اللاذع والسخرية المريرة في غير رحمة أو تقدير لوحدتها الأليمة .

ومع ذلك فإنها لم تهتم لحكم الناس وأقوالهم ، ولكنها كانت تشعر أمام نفسها بأنها ذليلة مهانة إلى أقصى الحدود الموجعة .

تصور يا سيدي أن فضائح مسيو « دسكاربي » كانت تصل إلى امرأته وتنقض على شعورها الدقيق الجريح ، حتى في هذه الوحدة التي آثرتها وفرضتها على نفسها لتكون أكثر اندماجاً في ألمها وأكمل انطواء عليه ! ومما يروى في هذا الصدد أن رجلاً اقتحم ذات صباح فناء القصر ثائراً مهتاجاً . ودفع الناس بقبضتيه ليفسح لنفسه الطريق . وهو يطلق السباب يمنة ويسرة ، ثم دخل الردهة التي تلي الباب الداخلي وملأ جنبات « الباجورو » بصياحه المنكر .

انتفضت سيدة القصر قائمة . وأسرعت إلى مصدر الصوت لتستطلع الخبر . فلما رآها الرجل ، وجه إليها سهام

غضبه وهياجه مصحوبة بأخس الألفاظ وأقذرها . ثم قال :

ــ زوجك أيتها السيدة اعتدى على ابنتي وأفسد خلقها .... أريد عوَضاً ! إذا كنت عاجزة عن استبقائه إلى جانبك . فقولي له على الأقل أن يبتعد عن بناتنا ولا يعكر صفو هدوئهن .... لن يمر عمله بسلام . أؤكد لك !

تملكت مدام « دسكاربي » رعدة الفزع . وتملكها إضطراب الخزي ووعدت الرجل بمبلغ من المال يناله من زوجها . ثم استطاع الخدم أن يخرجوه من القصر بعد أن بذلوا جهداً كبيراً .

وفي المساء رجع الزوج إلى بيته على غير عادته التي تدفعه إلى المبيت في الخارج أكثر ليالي الأسبوع . ولما بلغه نبأ الفضيحة . اتخذ سيماء الشرف لبضع لحظات وأحس شخصياً بالإهانة التي أصابت امرأته بسبب خطيئته . ولكنه أراد أن ينقذ نفسه من الموقف المعيب فأعلن أنه لا بد من قتل هذا الفلاح المختلق الذي أزعج زوجته بأكاذيبه أو على الأقل ضربة بالسياط .

فقالت زوجته في هدوء :

ــ لا تفعل . أعطه بعض المال . لقد كان صادقاً فيما قال .

○○○

ظللت وقتاً طويلاً لا أعلم عن سيدة « الباجورو » غير قصة جمالها ونكد طالعها الذائعة في أرجاء الإقليم . وكنت أسمع الرثاء لحالها من أفواه كثيرة ، وكنت أنا نفسي أرثي لحالها رثاء غامضاً بدافع غريزة الشفقة ، تلك الغريزة المستبهمة القاتمة التي تبعث الحنان في دخيلة ذوي العاهات . على شرط ألا تكون نكبتهم العضوية قد تركت في نفوسهم أثر قارصاً عميقاً .

وأني كما علمتَ من حديثي لم يكن لدي سبب خاص يجعلني أشعر بأني تعس شقي إذا استثنينا الآفة التي اذعنت لها ورضيت بها منذ الطفولة . كنت شاباً قوي البنية كلفا بفني الذي يكسبني في كل يوم مسرات وألواناً من النجاح ، ولم أكن أعد نفسي بحال من الأحوال من بين البائسين في هذا العالم . وعندما أسمع عن حياة شقية معتمة كحياة مدام « دسكاربي » كانت تأخذني لها رقة خالصة ورحمة فياضة .

وذات يوم جاءني رسول يقول إن سيدة قصر « الباجورو » تريد أن تتلقى دروساً في العزف على البيان ثلاث مرات في الأسبوع . وهي ترجو مني أن أذهب لمقابلتها في هذا الشأن .

ولن أنسى ما حييت هذه الرحلة التي حددت حظي

وبتت في مصيري ! مرت أعوام كثيرة منذ ذلك العهد يا سيدي ، وتوالت فصول أينعت خلالها وتفتحت ثم ذوت الأزهار دون أن يكون في هذا كله متعة لعينيّ اللتين حرمتا النور . ولكني بالرغم من مرور هذا الزمن الطويل ما أزال أسمع ، وأنا أحدثك الآن ، هبوب نسيم رطب عميق ، كالذي يداعبنا هذا المساء ، يجوس خلال غابة الصنوبر الكثيفة الهائلة ، ويحرك الأغصان اللدنة وذوائب الشجرة الرخصة ، فيستخلص منها موسيقى لها مدها وجزرها هي الأخرى ... إنها نغمات علوية عند هؤلاء الذين تطرب آذانهم إلى الحان الطبيعة ، وهي عندي يا سيدي أنشودة الحياة والموت . وفي كل مرة تبلغ فيها سمعي ، كانت ذكرياتي العزيزة تنهض قائمة في ذهني ، فيهمي على قلبي سيل من الغم والحنان .

وعلى هذه الوتيرة ، كانت أشجار الصنوبر تغني هذه الأنشودة ، كلما سلكت الطريق إلى قصر « الباجورو » كما غنتها يوم ذهابي إليه في المرة الأولى ...

إن لأشجار الصنوبر في غاباتنا صوتاً هو صوت ماداخل نفسي من عشق ! .

الفصل الخامس

دخلت ومعي دليلي فأجلسني في غرفة الإستقبال وانصرف . وانتظرت بعض الوقت حتى تغادر « مدام دسكاربي » غرفتها وتأتي لمقابلتي ، ثم فتح الباب وسمعت حفيف ثوب أعقبه صوت ينطق باسمي ...

يستطيع الآخرون الذين يبصرون يا سيدي أن يحتفظوا من حبهم بكنز من الذكريات ، لأنهم يعرفون لون الثياب التي كان يلبسها الحبيب في يوم اللقاء الأول . ويذكرون شكل شعره وتصفيفه . وتنوع بسمته وطريقة مد يده للمصافحة .. أما أنا فإني لا أستطيع أن أذكر غير حفيف ثوب أعلن إليّ مقدم « مدام دسكاربي » وصوت يذكر اسمي .

قد تقول إن هذا قليل ، ولكنه في الواقع من الكفاية بحيث يجعلني . أذكره اليوم وما حييت في وضوح أخاذ ، وعلى الأخص

الصوت ، إنه يرن في أذني دائماً رنيناً عذباً مشوباً برعشة تنبىء عن هم لاعج وتنم على ألم مكبوت وسيظل هذا الصوت كأنه روح « جولي » نفسها . إنك لا تستطيع أن تعرف ، وهذا من حسن حظك ، كنه الصوت عند من فقد بصره وعجز عن رؤية الجمال النسوي : أنه شيء حي له وسن محدد وصفة مميزة ، إنه شيء متغير كالسحنة والشكل وأعضاء الوجه . كل ما فيه من فروق مهما تكن دقيقة ، وما يبعثه من رنين مهما يكن خافتاً ضعيفاً ، يبين لنا بطريقة حاسمة قاطعة عواطف الشخص الذي يتحدث الينا من حب أو نفور أو عدم مبالاة . ويفصح لنا عما في نفسه من مسرات أو آلام ، وكذلك رسخ في حافظتي صوت « جولي » بنبراته وألوانه المتباينة رسوخاً لا يقوى على محوه الزمن . أما حديثها إليّ في زيارتي الأولى هذه لقصر « الباجورو » . فاني لا أذكره على وجه الدقة لأني كنت من الخجل والإضطراب بحيث يصعب عليّ استيعابه . والذي أعيه فقط هوانها دعتني للجلوس . ولما أردت أن أختبر البيان من توي لأقف على حال أصابعه وأوتاره ، استوقفتني وأطالت المحادثة في ظرف ورقة . وقد أرادت من غير شك أن تشعرني بهذا اللطف وهذه الكياسة أنها لا تعتبرني مجرد معلم للموسيقى لبى دعوتها لأداء مهمته ليس إلا

اتفقنا بعد ذلك على تحديد أيام الدروس وساعاتها ثم استأذنت وانصرفت . وقد تركت هذه المقابلة القصيرة الأجل أثراً بهيجاً في نفسي لازمني طوال عودتي ، وليس في هذا دون ريب ما يشف عن حب أو حتى عن حنان ، وكل ما في الأمر أني طربت لصوت « مدام دسكاربي » كما أطرب لايقاع منسجم .

كثيراً ما وجدت في القصص التي قرئت عليّ يا سيدي أن واضعيها يتحدثون عن حالات « الحب الخاطف » . ولكنك تحس جيداً أن الأعمى يكون قليل الإستعداد للايمان بهذا النوع من الحب : البصر وحده هو الذي يستطيع أن ينتج هذه الصدمات والهزات البراقة التي تُخضع المرء في الحال وتسيطر عليه من توها جملة وتفصيلاً . أما أنا ، وحالي كما تعلم ، فلم أصب بمثل هذا لأول وهلة . وقد ترددت راضياً فرحاً على قصر « الباجورو » خلال أسابيع متوالية . ولكن قلبي لم يشعر بقلق أو اضطراب . ومع ذلك لاحظت منذ الجلسات الأولى أن « مدام دسكاربي » تولي معلمها الضرير عطفها الرقيق . وأن ميلي الطبيعي يتنبه لها ويتجه نحوها .

إننا يا سيدي متعودون على الفضول الذي نبعثه في نفوس الأشخاص الذين يتصلون بنا ، مع أنه يسبب لنا بعض الضيق

والتعب ، إذ يصعب على هؤلاء الأشخاص أن يدركوا كيف يتسنى لمكفوف أن يروح ويغدو في الحياة ، وعلى الأخص كيف يزوال مهنة أو فناً . وفي هذا ينبجس ينبوع من صنوف الدهشة التي ينبغي أن نحتملها ، وآلاف الأسئلة التي يتحتم علينا الإجابة عليها . وعلى الرغم من مزاجي الفرح حينذاك ، كنت لا أخضع لهذه الحالات في بعض الأحيان إلا في شيء غير قليل من الضيق والتململ ونفاد الصبر . وقد لاحظت أن الأسئلة عينها التي كانت تضايقني ألقتها عليّ « مدام دسكاربي » ولم تثر في دخيلتي تأففاً أو نفوراً ، بل على العكس من ذلك . كنت أجد في اجابتها مسرة بالغة . لأني أحببت حديثها من ناحية ، واعتقدت أني تبينت في الأسئلة التي توجهها إليّ إهتماماً صادقاً خالصاً من ناحية أخرى .

واذكر على سبيل المثال أنها سألتني ذات مرة :

ـــ إشرح لي كيف تستطيع أن تقرأ الموسيقى ؟ ألم أسمع أن تراكيب موسيقية رتبت خصيصاً لك ؟

فلخصت لها طريقة براي ، رداً على سؤالها .

ثم ألقت عليّ هذا السؤال الآخر :

ـــ والحروف التي تكتبها ؟

فحدثتها عن حروفنا الهجائية . ولما فرغت من شرحي ، صاحت قائلة في حيوية ساحرة :

ــ ما أبدع هذا استعلمني هذه الحروف ، أليس كذلك ؟ وسيكون في وسعي أن أكتب إليك إذا أرهقني الملل في هذه الوحدة !

وبعد أن نطقت بهذه الكلمات في حدة تكاد تشبه رعونة فتاة صغيرة ، قالت في لهجة أليمة شاكية تختلف عن لهجتها الأولى إختلافاً بيناً وتنم على اعتراف ضمني بالأحزان التي تتخلل حياتها :

ــ آه ! لو علمت يا مسيو « سان فلوران » ! لو علمت كيف يستبد بي السأم أحياناً في هذا القصر ! .

وما أن سمعت منها هذه الكلمات ، حتى عاد إلى ذاكرتي ما يُروى عن قصر « الباجورو » . ومع أني لم أكن أعرفها إلا قليلاً ، فقد شعرت بحدب عميق على هذه المرأة الشابة التي نال من عواطفي صوتها وعطرها القريبان مني منالاً أكبر مما كنت أريد الاعتراف به لنفسي ، إذ أني لم أكن أحسست بعد في دخيلتي بأني سأحبها ، وكنت أقول :

ــ نحن في البؤس سواء ، وأن حزنها ومرضها وآلامها

لتنهض دليلاً على قسوة القدر ، هذا القدر الذي حطم حياتي بضربة واحدة وجعلني في الحياة ضريراً .

ومن أجل هذا تآخيت معها في رقة وتواضع واشفاق جمعتنا من غير شك مصائبنا المتباينة وجذبت كلينا إلى الآخر .

وبدا لي في صدق وإخلاص أن كلمة « إخاء » هي أدق ما يطلق على العاطفة التي نشأت بيننا دفعة واحدة ، فقد بدأت ، « مدام دسكاربي » توليني كما قلت لك إشفاقاً حيياً هو الصورة الأولى لحنانها الكامن الذي لم يتضح لنفسها بعد . وهي برثائها لي ، إنما كانت تندب سوء حظها وتشكو ألوان بؤسها ، وكنت ألمس خلال أقوالها التي تواسيني بها ، أحزانها الخاصة . وهي لم تكتم هذه الأحزان ، ولو أرادت كتمانها لما

استطاعت ، لأن طبيعتها التي تكون في بعض اللحظات من الجموح والحدة بحيث تبدو في أغلب الأحيان سلبية كليلة ، كانت تسيطر عليها بالرغم منها : ما أشد عنفها وثورتها حينما حدثتني عن حياة بعض الناس : تستثير الحسد بظاهرها وهي في الواقع تحمل في تضاعيفها مرارة صعبة البيان ! ولما كانت تتحدث عن هذه الآلام وتذكرها على أنها غريبة عنها مع شعوري بأنها

آلامها الخاصة ، كان صوتها يتخذ نغمة لم أعد قادراً على وصفها .

قالت في حماسة وحدة !

ــ إن لديك على الأقل مسرات فنّك وأبهة نجاحك . وأنك حر مستقل وأنك رجل تتمتع بجميع المزايا التي يستأثر بها الرجل ، أما النساء فعلى النقيض من ذلك ، إنهن في حاجة إلى الغير ليكن سعيدات وأننا لا نستطيع أن ننسج خيوط مصيرنا ، ولا بد لنا في هذا من عضد ومعين ، فإذا أعوزنا هذا العضد ، أعوزنا كل شيء . آه ! لو علم الناس مبلغ الحزن الذي تعاني وطأته الكثيرات من النساء اللاتي يعتقد الناس انهن سعيدات ومبلغ ما نقاسيه من نير الوحدة في هذا العالم !

ولما سكتتْ ، شعرتُ برغبة شديدة في الجهر لها بأنها لم تعد وحيدة منذ الساعة ، ولكني لم أجترىء بعد على إرضاء هذه الرغبة ، ولم يكن حبي جريئاً في أي وقت من الأوقات ! ..

وهنا تلاشى صوت « سان فلوران » في تنهد عميق . أكانت جملته الأخيرة انفجار أسف طال عليه الضغط والاحتباس ؟ أكان يتفكر في الحب والسعادة اللذين كانا يتحققان له لو أراد هو ذلك ؟ لا أؤمن بهذا ، بل أرجح أنه كان

يسيل حناناً على المرأة التي غيبها القبر في جوفه ، ويذكر في رقة بالغة الشفقة التي ألهمته المتوفاة إياها .

وبعد لحظات عاد يقول :

ـــ كانت عاطفة « جولي » برغم صفائها وطهرها ، قوية حادة تكاد تكون عنيفة كهوى آثم ، لأن مزاجها أراد لها أن تكون على هذه الصورة كانت عاجزة عن أن تحب بطريقة أخرى خالية من العنف والحدة ، مهما يكن الحب بريئاً نقياً وكان لحركات نفسها جميعاً هذا التوقد وذلك الاشتعال ، وكانت تبدي في عطفها عليّ تلك الثورة العنيفة التي كانت تصحب في سباق الأيام غيرتها الناتجة عن استهتار زوجها وإمعانه في عبثه . وكانت في أشد الحاجة إليّ ، حتى أنها كانت تود لو استبقتني إلى جانبها بصفة مستديمة ، وفي كل مرة ، كنت أتركها وقد هدأت أحزانها واستروحت نسيم العزاء وكادت تكون سعيدة ، وفي كل مرة أعود فألقاها رجعت إلى حالها الأولى بعد غيبة يومين اثنين .

وبعد فترة من الوقت ، يتملكها البشر والإيناس شيئاً بعد شيء من مجالستي وتبادل الحديث معي ، وتصبح أليفة الابتهاج على وجه التقريب ، وتبدو منها وهي تتحدث إليّ وتشد على يدي حيوية رقيقة مداعبة هي من مفاتن الفرنسية التي ولدت في

المستعمرات . وإني لا أستطيع أن أذكر إلا والألم يدمي فؤادي كم كان فرح هذا المخلوق المكتئب عذباً رائعاً حينذاك يشبه فرح الأطفال في صفائه وبراءته . وكانت نفسها من المرونة والنشاط بحيث كنت أسائل نفسي كيف يقوى جسم في هذا الضعف الشديد على احتمال هذه الاضطرابات المستمرة ؟

كانت الموسيقى كذلك تكسبها أحياناً مسرات مشرقة تعيد إلى النفس نضرتها وراحتها ، وأحياناً أخرى تغمز عليها انفعالات أليمة في عمق تأثيرها ، ولكن عنفها نفسه يرخي أعصابها التعسة التي أرهقتها الوحدة بالهياج والتوتر زمناً طويلاً . وكان عليّ أن ألجأ إلى الحكمة والتبصر في اختيار القطع التي أقوم بأدائها في حضرتها : فإن بعض القطع التي تحمل طابع الحزن العميق الموجع والقوة الفظة المريرة كقطع (شومان) مثلاً ، تثير في مشاعرها وحساسيتها عواصف حقيقية ، أما القطع الدينية والغرامية الجميلة الرقيقة المشتمل عليها أوبرا « الناي المسحور » فإنها تهدىء ألوان القلق في نفسها هدوءاً واضحاً ملموساً .

وكيف لا أذكر في زهو حزين ، ولم تعد حياتي ومواهبي اليوم غير أنقاض وأطلال التفضيل الكريم الذي كانت تزجيه إليّ قطعي التي كنت أصنفها ارتجالاً أمامها ومن أجلها ! لم تكن

هذه القطع غير الألحان التافهة المنتشرة في ريفنا والأغاني القديمة المتواضعة التي تدور حول المحراث ومعاصر الخمر ، وقد أدخلت عليها فقط بفن أكثر رسوخاً وعلماً من الفن الذي وضُعتْ به ، تنوعاً يكاد لا يذكر مع تبسط وأيضاح طفيفين . ومع ذلك ... من ذا الذي يقول في ذلك الوقت بأن هذه الترجمة الموسيقية البسيطة كانت مقتدرة على أن تؤثر إلى أبعد حد في فكر صاحبتي الباسر وخاطرها الساهم ؟!

جلستْ ذات يوم إلى جانبي وشرعت تنشد في صوت خافت رخيم لحناً من ألحان المستعمرات الفرنسية ... لحناً من الألحان الساذجة المداعبة العزيزة على الشعوب التي لم تتجاوز دور الطفولة ، فلم أكد أصغي إليه حتى وضعتُه في قالب الخيال الشعري ، والإيقاع الحالم ، وعلى هذه الصورة امتزجت ذكريات شبابي بذكريات شبابها ، وزوج الفن ما مضىّ من ماضيها ...

○○○

أني أتلكأ يا سيدي بين الذكريات الكثيرة التي تطفو جملة وتملأ ذهني دفعة واحدة ، ومن أجل هذا أقصها عليك في غير

تنسيق واختيار . ونظام ولعلي أكون قد بعثت في نفسك الملل ، فاعف عني ولا تؤاخذني . إني اوقظ ذكرى السرور الذي كانت تحسه « مدام دسكارني » مثلاً وهي تقتادني خلال تية القصر الهائل ودهاليزه الطويلة المتشعبة التي تجتازها في فصلي الخريف والشتاء تيارات شديدة من الرياح الباردة ، وخلال الحجرات المتصلة التي كانت معدة في سالف الزمن لحفلات الاستقبال الفخمة الرائعة ولم يعد يطأها اليوم زائر . ولقد قادتني ذات مرة إلى الشرفة المعرضة للرياح من جميع نواحيها . والمطلة ، كما قالت لي ، على ما يشبه البحر الهائل الهامس في أشجار الصنوبر ، الذي لا يدرك البصر نهاية موجاته اللعوب المتلاحقة . وكانت في أثناء مسيرنا تشرح لي أجزاء القصر المختلفة حتى أستطيع أن أتصور في مخيلتي على وجه التقريب ما كانت تسميه سجنها ، وأن أحيا قليلاً حياتها .

وذات يوم وقفت وأستوقفتني عند مدخل جناح في أقصى جزء منعزل من هذا القصر الموحش ، وقالت في صوت خافت كأنما قد استولى عليها حياء مباغت :

ـــ هنا غرفتي ، غرفتي التعسة التي طالما قضيت فيها ليالي حليفة الوحدة والألم ، ليالي أقام سهادها ومضى كراها .

فلم أكد أسمع هذه الكلمات ، حتى أخذني شعور احترام وفير بعث في نفسي رغبة ملحة في الركوع أمام هذا المدخل كأنه عتبة معبد مقدس وتملكني إنفعال شديد حبس الكلمات في صدري .

فبكيت .

مكتبة
t.me/t_pdf

الفصل السادس

إنك يا سيدي وأنت تتمتع بحياة طليقة من كل عقبة أو عاهة عضوية ، وتعرف باريس حق المعرفة ، وتتصل فيها ببيئة مثقفة طروب ، قد تجد بعض العسر في تصور طلائع الحب التي وصفتها لك ، بالنسبة لشاب فقد نور البصر منذ طفولته الأولى ، ولم يتحدث قط حديثاً قلبياً خالصاً إلا مع المزارعين والقرويات ، ولكن نفسه كانت مع ذلك معدة إعداداً طيباً للشعور بالجمال بفضل الفن الذي يمارسه .

ها هي ذي ذكرياتي عن تلك الفترة من حياتي ، تفكرت فيها طويلاً منذ ذلك العهد بحيث أستطيع أن أشرحها لك دون أن أخشى الانحراف أو الزلل :

لما أدركت أن « جولي دسكاربي » تولينى اهتمامها ، شعرت باديء ذي بدء بفيض من الفرح ، ربما يقرب من الفرح السوقي المبتذل ، ولكنه شديد الشبه على كل حال بما كنت

الاحظه في أترابي عندما كانوا يعتقدون أنهم في طريق الظفر بقلب نسوي ، ولكني أشهد لنفسي إحقاقاً للحق بأن هذه الحال الخالية من النبل ، لم يطل بها الأجل . وإذا حدث ، في بعض الأحايين حينما أعود إلى قريتي وأقبع مساء في غرفتي ، أن مرت بخاطري أحلام محرمة ، فإنها كانت ترتطم في الحال بهذه الحقيقة المريرة : « إني ضرير ! » فتتحطم وتذهب أباديد .

وأستطيع أن أعترف لك بأن فتيات من طبقتي ، قبل أن تختصني « مدام دسكاربي » بعنايتها وتلحظني بعين اهتمامها ، ابدين لي في كثير من الأحيان ، من الأقوال والحركات في الحرية التي يتعشقها أهل الريف ، ما جعلني أدرك أنني أحظى لديهن بحسن القبول . ومع ذلك فإن هذه الأقوال والحركات لم تكن لتهدهد نفسي إلا لحظات قصيرة ثم تسلني وشيكاً إلى شعور بآفتي أكثر يقظة وجلاء من ذي قبل ، أما من ناحية « مدام دسكاربي » التي تختلف إختلافاً كلياً عن جميع النساء اللاتي اتصلت بهن إلى ذلك الوقت فانها كانت تثير في أعماق دخيلتي حساسية حادة عنيفة تكاد تبلغ حد الألم . وقد ذكرت لك فيما سبق أن تلميذتي الجميلة كانت تنسى نفسها أحياناً وتندفع في أقوالها اندفاع الأطفال ، وما كانت لتجد ضيقاً أو حرجاً في

التحدث إليّ عن وجهي . وأمعنت في هذه السبيل الى حد أنها كانت تقول إن قسمات وجهي منتظمة في تناسب وانسجام ، وأن شعري جميل ، وقوامي معتدل يبعث على الاعجاب ــ أي تحدثني عن جميع الأشياء التي كانت حقيقية حينذاك فيما يظهر وأؤكد لك سيدي أن مثل هذه الأقوال التي ربما قيلت أملاً في مواساتي كنت تنشر في نفسي اليأس الفاجع ، وكنت أقول في نفسي عند سماعها : « نعم ... ولكني ضرير ! ... ضرير ... »

وثمة شيء آخر جنّبني ارتكاب عمل جنوني كان من الجائز أن يدفعني شبابي الى محاولة اتيانه أو في الأقل الى تصوره واعداده . فلم أكن في حاجة إلى وقت طويل لكي أعلم علم اليقين أن صحة (مدام دسكاربي) معتلة اعتلالاً أشد خطراً مما كانت تعتقد هي نفسها ، ومن أجل هذا كان أقل انفعال أو تعب يؤثر فجأة في نبضات قلبها الضعيف تأثيراً سيئاً يبعث على القلق ولما توثقت بيننا اواصر الألفة ، شرعت تخرج بعد الدرس للاستراضة متكئة على ذراعي ، وتقودني خلال مستدقات الحديقة وغابة الصنوبر المحيطة بالقصر ، وكان خطونا الوئيد الممهل وهي تقودني وتتحامل عليّ ، يقطع ويضطرب عدة مرات

بخور يعتريها أو اغماءة تصيبها على حين بغتة ... وكان يخيل إليها في بعض اللحظات أن قلبها يقفز في صدرها كأنه يروم تحطيم الجدر التي تحتويه ، وفي لحظات أخرى تبطىء نبضاته وتضعف بحيث يظن أنه لا محالة مشرف على خور أبدي .. وذات يوم عند مجتنح الأصيل ، اضطررت إلى أن أحمل بين ذراعي جسم هذه المرأة الفتية وقد فقدت الوعي ، وأقطع به راجلاً فرسخاً أو يزيد قليلاً لأبلغ القصر . ومن حسن الحظ أني كنت قد ألفت إلى درجة مرضية أرياض « الباجورو » فأمنت بذلك شر العثار وخطأ الطريق التي أسلكها . وإنك لتدرك يا سيدي كيف كانت عودة الضرير وهو يحمل بين ذراعيه قائده ، فاقد الحس متصلب الأعضاء !

ومع هذا فقد تناولنا طعام العشاء في مساء اليوم عينه منفردين وكانت طلقة اللسان مبتهجة النفس خفيفة الجسم : إذ عادت إليها الصحة فجأة في سرعة عجيبة ، كأن عقبة طارئة أوقفت عجلة حياتها لبعض الوقت ، ثم أختفت دفعة واحدة ، فعادت العجلة سيرتها الأولى ...

○○○

لم يفتني يا سيدي أن أتفكر في أمرنا : وليس من شك في أن كثيراً من الأشياء التي اشتملت عليها قصتي قد بعث في نفسك الدهشة ، وربما ذهب بك الظن إلى أني أُدخل على الحقيقة بعض الوشي والتزوير كما هي العادة المألوفة عند أهل هذه البلاد ومن الصعب عليك أن تؤمن بأن صلة في هذه القوة وهذا الصفاء يمكن أن تنشأ بين سيدة والمعلم الذي يلقنها دروساً في العزف على البِيان ، وفي بيت يقطنه زوجها ، ويتردد عليها فيه بعض الأقرباء ، وتراقبنا فيه على الأقل عيون الخدم . وإني شخصياً وأنا أقص عليك اليوم هذا الماضي ، أشعر بأن مثل هذا الموقف تطير من حوله الشبه ولا يحتمل التصديق ، ولكنه مع ذلك حقيقي ، وامتد به الأجل ... ولو حدنا عن الطريق السويّ في صلتنا ، لظهر هذا الموقف لكلينا باطلاً معوجاً غير محتمل ، ولكن اشراق ضميرنا وصفائه التام اكسبانا اطمئناناً جميلاً ، ونشرا من حولنا أشعتهما دون ريب .

لم نفعل سوءاً البتة : وأزيد إلى ذلك أننا كنا مستيقنين أننا نصنع خيراً إذ نستسلم لقيادة الميل الأخوي الذي يؤلف بين ما يشعر به كلانا من وحدة وما يعاني من بؤس وشقوة .

وعلى الرغم من ذلك ، شاع الهمس واللفظ المعيب ،

وهذه نتيجة تتوقعها يا سيدي ولا تجد فيها غرابة أو شذوذاً . وأعتقد أن أفظع هؤلاء الذين ولغوا في سمعة « جولي » لم يؤمن لحظة واحدة بصحة ما يقول ولكن صاحبتي كانت تبدي عدم اكتراث لمن حولها من الناس ، فحقدوا عليها ، ودفعتهم النية السيئة إلى الانتقام منها جزاء فتورها نحوهم وأزورارها عنهم ، ورأوا من واجبهم فضلاً عن ذلك أن يسخروا من معلم الموسيقى المسكين لأنه يتردد على القصر كل يوم إلا قليلاً ، وتستقبله فيه أجمل نساء الأقليم وأكثرهن رواء وسحراً ، كأنه من ذوي الرحم المقربين .

هل بلغت هذه الأقاويل المشينة مسامع « مسيو دسكاربي » ؟ أكاد لا أصدق أنه كان يجهلها ، وعلى كل حال فان هذا الزوج السيء احتفظ في صلاته بزوجه ، على الرغم من حياته المبعثرة الماجنة ، بقسط من كرامة الرجل الشريف . ولا أزال أذكر أنه شهد الدروس التي أعطيها جملة مرات ، وكان لا يمكث معنا في كل مرة الا بضع دقائق ، ولكنه لا ينسى أن يغدق الثناء على مواهبي الموسيقية في لهجة التعاظم التي تشتمل على روح التطاول والقحة .

وكان يضيف إلى عبارات المديح التي يغمرني بها . بعض

كلمات تحمل في ثناياها دائماً نصيباً من التهكم الأليم ، ويرمي بها إلى أن يكسب علانية صلتي الوثيقة ببيته إذناً منه صريحاً واضحاً ..

وذات مرة قال لي .

... على الأخص يا مسيو سان فلوران ، لا تشعر نفسك أية غضاضة في أن تتناول هنا طعام الغداء والعشاء كلما شئت ذلك . لطالما تمنيت أن تجد زوجي لوناً من ألوان التسلية أثناء تغيبي الاجباري . ولقد بحثت فعلاً عن سيدة ترافقها . ولكنها لم تظفر ببغيتها . وأنت لها خير من ذلك بكثير يا مسيو سان فلوران ، خير من ذلك بكثير !

ولما فرغ من قوله ، نهض وخرج لمجونه وضروب عبثه . إنه أخجلني وأذلني أمام « جولي » أو في الأقل اعتقد انه فعل ذلك . مسكين هذا الرجل ! لم يعرف بأي ضغط رقيق من يدها ، وبأية كلمات حارة ناجعة ، كافأتني صاحبتي وشفت جرحي عقب خروجه مباشرة !

ينبغي الآن أن أشرح لك يا سيدي كيف أحببت ، ليس فقط نفس « جولي » التي تسيل رقة وسحراً وتستدر العطف والشفقة ، ولكن أيضاً جمالها ، هذا الانسجام في الأشكال

والألوان الذي يستخفي عادة على ضرير مثلي .

قلت لك إن أول ما استهواني منها وملك عليّ مشاعري ، هو صوتها الذي أيقظ رنينه في دخيلتي ألحاناً كانت إلى ذلك الحين مستغرقة في سبات عميق . أحببت نفسها ــ وما أسماها ــ كما كشف لي عنها هذا الصوت أحببت مجلسها الرقيق الذي يغمرني بسعادة شعرية خالصة ... وبعد الأذُن ، كشف لي اللمس عنها . إذا لمستني أصابعها لمساً خفيفاً أو مسني ثوبها مساً رقيقاً ، كنت أشعر بهذا الانفعال القدسي الذي يتملك الآخرين حين يتأملون الحبيب ويلتهمون جماله بأعينهم . كان يكفي من غير شك ، التعاطف الوثيق الذي يجذب كلينا إلى صاحبه ، أو الابتهاج الذي يشيع في نفسي عند سماع صوتها ، أو الشعور فقط باحتكاك ثوبها في أن أصبح (لجولي) عاشقاً معموداً . ولكني لم ألبث أن ذقت لوناً غريباً من ألوان العذاب :

أردت أن أعرف جمالها الذي حرمت رؤيته معرفة دقيقة شاملة : **وأسفاه ! لقد كان تحقيق هذه الرغبة صعباً إلى حد بعيد بالنسبة** لشخص أطفىء نور بصره منذ زمن طويل ، ولم يكن يلمح ، حتى في أثناء استمتاعه ببصره ، إلا وجوه الفلاحات ! كيف أصور لنفسي المخلوق الأنيق الذي لا بد أن تكونه (جولي)

وأتخيل رقة كرقتها بمساعدة ذكرياتي الواهنة التي كاد الزمن يمحو أكثر معالمها ! استنتجت من مشيتها ووقع قدميها على أرض (الباجورو) أنها لدنة العود خفيفة الحركة وقدرت قامتها أثناء استراضتنا جنباً إلى جنب أو حين كانت تتأبط ذراعي ، بأنها أقصر من قامتي قليلاً . وكان هذا كل شيء استطعت معرفته .

ولما ضقت ذرعاً بالرغبة التي تعتلج بين جنبيّ ، اجترأت على سؤالها فأجابتني وهي تحاول جهد المستطيع أن تشرح لي في دقة وتفصيل بالغين قسمات وجهها جميعاً .

ــ شعري أسود ، وعيناي في لون شعري . أوه ! أشد سواداً مما يلائم ذوقي . لشد ما كنت أتمنى أن أكون شقراء الشعر زرقاء العينين ! وبشرتي بيضاء على ما أعتقد ، ووجهي ضامر صغير ...

كنت أرهف السمع لأستوعب كل كلمة من كلماتها ، وأستصرخ مخيلتي لتمدني بما تملك من قوة ، ولكنها كانت محاولة فاشلة وجهداً ضائعاً فما اجتهدت في إقامته وبنائه ، تداعى وانهار أثناء الليل شيئاً بعد شيء ، عشر مرات وجهت إلى « جولي » سؤالي ، فكانت تجيبني في كل مرة بصبر جميل يستدر العجب والإعجاب ، وعشر مرات أخفقت في مهمتي الأليمة التي تؤرقني

وتقض مضجعي ، ولشد ما أسفت حينذاك على أني استسلمت بكليتي لمسرات السمع ، ولم أقلد هؤلاء العمي الذين يسألون مرشديهم أن يصفوا لهم البقاع التي يجتازونها والآثار والتماثيل التي يمرون بها والأشخاص الذين يصادفونهم في طريقهم ، حتى لا يحرموا صورة ذهنية للعالم الذي امتنع عليهم رؤيته حرماناً تاماً ! لماذا تركت التذكار ، وهو البصر الباطني ينطفىء في نفسي !؟

ولما استبد بي اليأس ، رقّت « جولي » لحالي ، وسمحت لأصابعي المضطربة من فرط الاحترام والحنان بأن تستكشف قسمات وجهها وتتحسسها فكنت كالبخل الذي يعد كنزه في ظلام الليل .

وبهذه الطريقة يا سيدي ، استطعت أن أعرف مبلغ الانسجام النادر المثال في هذه القسمات المقدسة ، ولقد طلبت ذات يوم إلى مرشدي في الطريق أن يذهب بي إلى مصنع مثّال في بلادنا هذه ، واستطعت هناك أن أقارن بين وجه صاحبتي ووجوه التماثيل الشهيرة ، فخرجت من هذه المقارنة بأن تلك الوجوه أقل جمالاً وانسجاماً من هذا الوجه الحيّ الذي يجري فيه دم الحياة وإني مؤمن بهذه الحقيقة وقد استخلصتها من اللمس الذي لا يمكن أن يخدع ضريراً .

الفصل السابع

كانت الصلة التي تجمعني وإياها أول الأمر ، صلة ألفة وإخاء ، ثم صارت صلة عشق وهيام ، مع بقائها صافية طاهرة ، ولكنها لم تلبث أن هبت عليها بعض العواصف التي تعكر صفاءها .

قلت لك إن في عواطف « جولي » لوناً من ألوان الحدة والهياج ، وقد أصبحت تغار عليّ كما كانت تغار على زوجها في أول عهدها به ، وربما ظلت تغار عليه طيلة عمرها ، ولكن غيرتها في الحالين لم تكن من نوع واحد .

كان استهتار زوجها وفضائحه قد آلمت قلبها جد الألم ، وأصابت كرامتها كزوجة بجراح بالغة . وفضلاً عن ذلك فانها عانت من الوحدة التي ألقاها « مسيو دسكاربي » في وحشتها عذاباً شديداً ، ولكنها منذ زمن بعيد لم يعد قلبها يخفق بحبه ، وكل

ما في الأمر أن أنفتها الجريحة كانت تتألم وتتعذب . أما أنا فانها كانت تحبني إلى درجة أني أصبحت بدلاً من زوجها وعلى الرغم من إرادتي ، مصدراً لأفظع الآلام التي تصيب شعورها الدقيق وحساسيتها المرهفة .. أنا الذي أحبها حباً يبلغ حد العبادة .

وإليك ما كان يفزع صاحبتي :

كانت مهنتي تتلخص في إعطاء دروس موسيقية والعزف في السهرات التي أطلب لاحيائها ، وكان عملي هذا سبباً لقلق « جولي » وعذابها المبرح . وكان جل تلاميذي من فتيات القصور في هذه البقعة ونسائها اللاتي يرفلن في حلل الشباب ، ولم يكن في هذه البلاد من يلم بفن الموسيقى سواي إذا استثنيت شيخاً جاهلا عاجزاً عن منافستي ، فكانت هذه الحالة تفرض على الراغبين في هذا الفن أن يلجأوا إلي . وفضلاً عن مواهبي الموسيقية التي حازت قسطاً من التقدير وحسن القبول ، كانت آفتي تطمئن الاسر وتشيع فيها الثقة ، أي أنني كنت أعتبر شخصاً لا يُخشى منه .

ولكن « جولي » لم تكن من هذا الرأي : إنها أحبتني ، وعلى ذلك يصح أن يكلف بي غيرها من النساء ، وليس من المستحيل أن تهفوا إليّ قلوب النساء جميعاً ! وكانت مخاوفها هذه

تزداد استبداداً كلما انطلقت الالسنة بالتحدث عما أصادف من نجاح فني متواضع ، حتى ثبت في وهمها أن تلاميذي ومن يستمعون لعزفي جميعاً منافسات . وفي الحق أنها كانت تثق بي إلى درجة تجعلها لا تشك في وقوع خيانة إيجابية مني ، ولكن هذه الثقة لم يكن فيها غَناء لنفس كنفسها ... كانت تغار من النساء اللاتي يصفقن لي ... تغار من ضروب التشجيع التي لا توجه إليّ منها خاصة دون سواها ... تغار من المهارة والجد الذين يبذلان في حضرة غيرها ، وليس في حضرتها وحدها ... تغار من آيات الاعجاب التي تشجع إلهامي إذا أتتني من الآخرين .

وفي كل مرة أطأ فيها قصر « الباجورو » كانت تطلب مني في الحاح شديد أن أقص عليها تفصيلاً كل ما فعلته منذ مقابلتنا السابقة . وذات يوم لم أجد مفراً من الجهر لها بأني دعيت لاحياء سهرة في أحد القصور القريبة .

وما أن سمعتْ هذا النبأ حتى صاحت قائلة :

ــ عند مدام « روايه Royer » ؟ إني أعرفها معرفة سطحية ويقال إنها ذكية ... وغزله .

أحسست في صوتها بقلق يكاد يشبه الغم .

وبعد قليل عادت تقول :

ـــ ستسافر مدام « كارتييه Cartier » إلى « بيارتيز » قريباً . ويسرني هذا السفر ، لأنها في اعتقادي لا تنظر إليّ بعين الود والرضى . وأغلب الظن أنها سلقتني عندك بألسنة حداد . لشدّ ما أخشى على حبنا حقد الناس وعداوتهم .

ولما كنت أصيب بعض النجاح في سهرة أو حفلة موسيقية ، كان عليّ أن أروي لها جميع ما حدث في تفصيل ودقة ، وأنبئها بأسماء الأشخاص الذين شهدوا الحفلة ، وعلى الأخص أسماء النساء اللاتي دفعتهن المجاملة أو الاعجاب إلى الثناء عليّ . وكل هذا كان لها مصدر عذاب أليم .

وذات مرة قالت لي بعد أن فرغتُ من سردي :

ـــ عندما تكون بعيداً عني ، أخشى كل ما يمكن أن يشغلك عني فهل يتجه إليّ فكرك حينما تصفق لك هؤلاء النسوة ؟ إليك ما يجول بخاطري : أود لو أكون وحدي التي تنعم بودك وصحبتك :

ثم استدركت فجأة .

ـــ ولكن لا . اني أغالي في الطلب غلواً كبيراً . يجب أن تغشى الاجتماعات وتلبي الدعوات ، لأن حالك تستوجب ذلك . اتقسم لي على الأقل أنك لا تجد فيها معين سرور ولذة ؟

فلما أقسمت لها مطمئن الضمير ، قالت في صوت راعش حنان :

ـــ وأسفاه أني لأخشى أن لا تشعر بالملل إلا معي ... إني غريبة الأطوار عصبية المزاج قلقة النفس ، وأضايقك بغير حق أو مسوغ ، ينبغي أن تصفح عني ... إني مريضة النفس والجسد ... فلم يسعني إلا أن أقفل فمها بأرق عبارات الاحتجاج ثم أكدت لها أني لا آبه لأحد في العالم ، وكنت في قولي هذا صادقاً ، إذ أن « جولي » ، أصبحت عندي العالم بأسره ، فهدأت نفسها من قولي وشكرت لي عواطفي في انفعال خلاب وقالت :

ـــ كن رحيماً بي يا صديقي ، إني في أشد الحاجة إلى الحنان ، ولم يشعرني بالحب أحد من قبلك ، ومن أجل هذا أعتقد أني مدينة لك بالقوة التي تعينني على احتمال الحياة .

شكرتْ لي عواطفي يا سيدي ! لي أنا الذي كنت أتمنى أن أقضي الساعات الطوال جاثياً عند قدميها لأوفيها بعض ما يجب عليّ من آيات الشكر والاعتراف بالجميل ! ما قيمة حياتي المعتمة التي يكتنفها ظلام مقيم ، إذا لم تكن قد كرُست لها وحدها ؟ إن المسرات التي يمنحني إياها الفن نفسه ، أحسها

تافهة ضئيلة بالنسبة لتلك التي كان يبعثها الحب في قلبي ، أو بتعبير أصح ، كنت أشعر بأن الحب عندي ينفذ إلى صميم الفن فيرفع من شأنه . وأقسم لك أني لم أجد في تضحيتي بكل شيء من أجل هذه التي أدين لها بكل شيء ، عملاً يستحق الحمد فلما لاحظت أن قسمة وقتي وموهبتي المتواضعة بينها وبين الناس تسبب لها ألماً ، لم أتردد فيما ينبغي أن أصنع : ضحيت بالناس .

واني لشارح لك كيف اتخذت هذا القرار :

من الأفراد القلائل الذين ، كانو يزورون « الباجورو » لماماً ، أخت المسيو « دسكاربي » وهي متزوجة من أحد أغنياء الاقليم . وقد استمعت لعزفي عدة مرات وأبدت في كل مرة إعجابها الشديد بفني . وكان من الجائز أن يبعث هذا الاعجاب في نفسي الزهو والكبرياء لو كان في الحياة شيء يؤثر فيَّ بعد المديح الذي أغدقته عليّ صاحبتي .

ولكثرة مقابلتنا في قصر « الباجورو » . طرأت على هذه السيدة الرغبة في دعوتي لإحياء سهرة عندها . فتسلمت منها ذات يوم رسالة موجزة قرئت عليّ فوجدتها تقول فيها إنها نظمت حفلة صغيرة تكريماً لي ، ورأت أن تدعو إليها جميع صديقاتها

وأنها لا تنتظر مني أن أرفض الذهاب إلى حفلة أكون بطلها ، وأن أحرمها وصاحباتها من السرور العظيم الذي وعدن به أنفسهن . ثم أضافت إلى ذلك قولها : « سيكون رفضك مزدوج الألم . لما تعلم من أن بلادنا تضن علينا بالمباهج الفنية . إذن أعتمد عليك وعند الحاجة . سأرجو من «جولي» أن تشفع لي عندك ...

اطلعت (جولي) على هذه الرسالة : فقالت :

ــ يجب أن تلبي الدعوة : ــ أتنصحين لي بذلك ؟

ــ بل أرغب فيه لسببين : الأول أن أخت زوجي وضعتني في مركز حرج ، فلا أريد أن يقال عني فوق ما يقال إني استحوذ عليك وأستأثر بك ، والآخر أنه يسعدني أن أكون عند حسن ظنها بي فأرضي الرغبة التي تملكتها وإنها الوحيدة من أسرة « دسكاربي » التي رأيت منها بعض أمارات العطف والمودة ، وسأذهب أنا أيضاً لشهود هذه الحفلة .

فقلت وقد أخذني العجب والابتهاج .

ــ حقاً ؟ تفعلين ذلك ؟

ــ نعم من غير شك . تعرف جيداً أني صدفت عن الخروج منذ زمن بعيد حتى كدت لا أقوى على السهر ، ولكن

في هذه المرة سأتحدى عاداتي في عنف وشدة لكي أعود إلى حياة الاجتماعات ... من أجلك ثم سكتت قليلاً وقالت :

ـــ لن يغضبني أن أراك تظفر بالنجاح وسط المعجبات بك . وما أن نطقت بهذه الكلمات حتى أدركتُ الغرض الحقيقي الذي ترمي إليه : كان يستولي عليها تشوف ملح ينشر في نفسها القلق ، فأرادت أن تشهد إحدى الحفلات التي يلازمني النجاح فيها ، هذا النجاح الذي كانت تعتز به وتألم منه ، لتراقب نهجي وهيئتي وطريقة ردي على ملق النساء وتستيقن أن دلهن وضروب تظرفهن المغرية لا تقوى على امتلاك مشاعري .

وربما خضعت أيضاً لأحد هذه البواعث الغريبة المتناقضة ، الشائعة في طبيعة المحبين ، والتي من شأنها أن تجعلهم مولعين بأن يتفقدوا المناظر التي يعلمون حق العلم أنها تؤلمهم أشد الألم .

نُظمَتْ السهرة وحان موعد افتتاحها ، ولما دخلتُ المكان الذي أقيمت فيه ، أدركت من صخب الحديث وما يتخلله من ضجيج الضحك أن غرفة الاستقبال حافلة بالمدعوين وعلى الأخص بالمدعوات ، إذ أنني لم أسمع على وجه التقريب إلا أصواتاً نسوية . وكان يساورني قبل دخولي قليل من القلق مأتاه الشك

في نتيجة هذه التجربة ، ولم يكن الضجيج والحرارة مما يُذهب عن أعصابي الضعف والاضطراب ، ولقد استولى عليّ شعور جلي فصيح بأن « جولي » جاءت قبلي وأنها جالسة بين المدعوين في هذا المكان ، وكان هذا هو الواقع ، فان ربة الدار التي أسرعت إلى لقائي والترحيب بي عند دخولي مباشرة ، قادتني من توها إلى حيث صاحبتي ، فحييتها وألقيت في أذنها همساً هذه الكلمات :

ــ في هذا المساء ووسط هذا الجمع كله ، لن أفكر إلا فيك ، ولا أعرف إلا لك .

لم تجبني إلا بضغط رقيق من يد لاهية . ولكني عرفت من هذا اللمس الخفيف أن عقارب الغيرة تلدغها منذ الساعة ولم تهدىء الحيطة التي اتخذتها ما يخالجها من سوء الظن .

وإني لفي هذه الحال وإذا أخت زوجها تأخذ بيدي وتقدمني إلى المدعوين الواحد تلو الآخر حتى مررنا بمن في غرفة الاستقبال جميعاً دون أن ألقي بالي إلى عبارات الإطراء التي توجه إليّ أو أعي الكلمات التي خرجت من بين شفتي رداً عليها . وكانت حفاوة بالغة ألقتني حقاً في جحيم من الألم ، إذ أنني طيلة المدة التي استغرقتها ، لم أتمثل في خاطري شيئاً آخر غير العذاب

الباطني الذي ترزح صاحبتي تحت عبئه أخذت حرارة الجو تزداد قليلاً قليلاً : وامتلأت أذناي بضجيج مزعج ناشيء من جذب المقاعد ونقلها ، وحفيف الأثواب ودوي الضحكات النسوية وهمسات المدعوين التي تختنق عند مروري بهم ... ثم فزت بالهدوء آخر الأمر فجلست إلى البِيان وشرعت في العزف !

ولم يكن من شأن حالتي العصبية حينذاك أن تجعلني مهبطاً صالحاً للإلهام الذي جعل مني في بعض الأوقات فناناً حقاً ، ولذلك كان عزفي رديئاً . أي أن نفسي ظلت في معزل تام عن موسيقاي التي لم أجملها بأكثر من براعة آلية سهلة وقد بدا مني في موقفي هذا ، التألق والمهارة العادية معاً .

وهاتان الصفتان فيما يظهر يا سيدي ألزم ما يكونها لفناني غرف الاستقبال ، إذ أنني حصلت بعزفي هذا على نجاح كان من المؤكد أن يصبغ وجهي بحمرة الخجل لو كان فكري متجهاً في تلك اللحظات إلى شيء آخر غير آلام « جولي » وكربتها . ولما فرغت من العزف نهضتْ الفتيات والنساء ودنون مني وضربن من حولي نطاقاً في حفيف أثوابهن الرقيق ، ثم أمطرنني بالمديح في أصواتهن الحادة ، وقلن في إجماع إن مواهبي الفنية لم تتجل قط كما تجلت في تلك السهرة !

كان عليّ أن أعزف مرة أخرى ، وكان عزفي أكثر رداءة منه في المرة الأولى ! في رأيي على الأقل ، ولجأت إلى الحذق الآلي لأروح عن أعصابي المتعبة . فملكت مشاعر السامعين وخلبت ألبابهم .

ودفعة واحدة استولى عليّ مزيج مباغت من الضيق والقلق ، وأحسست في يقين بأن مدام « دسكاربي » لم تعد في الغرفة حيث اقوم بالعزف ، بل غادرتها في اللحظة نفسها التي غمرني فيها هذا الشعور . فأمسى مستحيلاً عليّ بدوري الجلوس إلى البيان بعد ذلك وقتاً طويلاً ، واحتمال لجاجة هذا الحماسة والحفاوة كلها . كيف أصنع ؟ اختتمت قطعتي الموسيقية المرتجلة ببعض انغام سريعة ، وعزفت الألحان الأخيرة بغير انتباه . وبينما كان المدعوون يصفقون لي مرة أخرى ، نهضت عن مقعدي وتسللت من الغرفة معتذراً بالتعب لأنجو بنفسي من إطراء لا قيمة له عندي .

أدركت بفكري وحسي أن « جولي » في الحديقة فأردت أن الحق بها . وكنت قد ترددت على هذا المنزل جملة مرات لاصلاح أوتار البيانات ولذلك كنت أعرف طريقي دون حاجة إلى دليل ، ولم يكن عليّ إلا أن أجتاز الدهليز وأهبط على

درجات السلم القليلة ، ثم انحرف يسره لأسلك طريق الحديقة الكبير ، ولم تمض لحظات حتى كنت خارج المبنى .

سرت في الطريق الممتد بضع دقائق دون ان اقابل احداً من الناس . وكنت من حين إلى آخر اسمع فوق رأسي هفيف اغصان الحور والزيزفون الناعسة في دفء تلك الليلة الصيفية ، وكان يجثم على صدر الأشياء جميعاً قلق ثقيل فادح .

انتهى بي الطريق الكبير إلى ميدان صغير به مقعد خشبي مستدير يلجأ اليه المتريضون ليستريحوا ، ولما دنوت من هذا المقعد متحسساً ، وقد مددت يدي إلى امام ، لمست بهما النصف الأعلى لإنسان جالس : كان هذا الانسان « جولي » .

فقلت لها :

ــ كنت أبحث عنك يا أعز الناس عليّ . ماذا بك ؟ أتشعرين بألم ؟ فأجابت في صوت كسير تمتزج نبراته الحزينة بنوع من سذاجة الطفولة :

ــ دعني وشأني ...

وكانت هذه حالها في أغلب الأوقات حينما يهمى على قلبها سيل الألم : تتجلى نفسها السريعة الإنكسار والتي تشبه نفس الطفل ، بكامل ضعفها الساحر في فورات حديثها .

أخذتُ يدها في يدي ، فشعرت بها مبللة ، فسألتها :

ــ أتبكين ؟

كلا . لست أبكي . ! دعني ...

وتنهدت تنهداً عميقاً عافها عن إتمام الكلام ثم انفجرت باكية .. كانت في محنة طفل تعس ، وكنت سبباً في هذا اليأس المروع !

سكتُّ قليلاً ثم قلت :

ــ أصغي إليّ يا صديقتي ... أجيبيني ... تعلمين أني أوثر الموت على أن أسبب لك ألماً ، وفي هذا المساء ، كان ايلامي لك حاداً عنيفاً بالرغم من ارادتي . أشعر بهذا جد الشعور ، ومع ذلك فاني لم أقصد إليه ...

فأجابت مسرعة :

ــ اني لا آخذك بشيء ، ولستَ في الحق مخطئاً ولا ملوماً .

ــ لو لم تأمريني لما حضرت هذه السهرة .

ــ نعم . أنت محق ، أنا التي أخطأت ، وأخطأت على الأخص إذ شهدت هذه الحفلة ... اعتقدت أني أقوى مما أنا في حقيقة الأمر ... وبعد صمت قصير الأجل ، عادت تقول :

ـــ ولكن أنت ... أتشعر بالرضا والسرور ؟ أصفق لك المدعوون طويلاً وأحاطوا بك عندما غادرت المكان ؟ كان على مقربة منك جمع كثير .

هؤلاء النسوة جميعاً كن يتحدثن في نغمة شاكية عن ندرة استمتاعهن بفنك ، وكنتُ أثناء حديثهن أعاني ألماً شديداً ، وهذا جزائي العادل .

إذ لماذا حضرت ؟ لم يكن ، في السهرة ما يستوجب مجيئي ، ولم يكن له من نتيجة سوى مضايقتك في تذوق النجاح الذي ظفرت به ...

كيف أستطيع الاجابة ، وبماذا أجيب ؟ آثرت الصمت ساهم الوجه حزين النفس حتى تهدأ « جولي » ولم أجترىء على النطق بكلمة واحدة .

وبعد لحظات ، قالت :

ـــ وعلى كل حال ، أجد أنا شخصياً ، أنك لم تعزف جيداً هذا المساء . ولم توفق من غير شك في اجادة العزف .

وما أن فرغتْ من حكمها حتى أمسكت بيدي وقالت :

ـــ أغفر لي انحرافي عن شرعة الانصاف . كيف أصنع يا صديقي ؟ اني أقضي حياتي في خوف من أن يستهويك غيري

فتصد عني ، وهذا الخوف يجعلني أضطرب إما صحوت وإما غفوت ، ولست أجهل ضروب الضيق التي تفرضها عليك أثرتي — وهي أثرة انسان مريض ، وصداقتي المستبدة . وأخشى في كل حين أن يصيبك منهما الملل ، وأن تستحوذ عليك الاجتماعات والحفلات . وهذه الفكرة تصيبني بالألم ، فتدفعني دفعاً إلى إيلامك .

تعلقتْ بهذه الكلمات الأخيرة في حزن هادىء ، وكانت الطبيعة من حولنا هي الأخرى مستغرقة في سكون رهيب مرهق ، ثقل علينا وترك في مشاعرنا أثراً كبيراً . وكنت أصغي إلى هذه النفس القدسية ، هذه النفس الحزينة التي أعبدها وأعذبها في الوقت عينه عذاباً متصل الحلقات بالرغم مني ، وهي إلى جانبي تتململ وتتوجع ...

وإني لفي موقفي هذا ، إذ شعرت فجاءة بحاجة ملحة إلى إرضاء صاحبتي والقضاء بوعد مني على كل ريب في نفسها من حبي قضاء مبرماً ، فأجبتها :

سأجنبك الألم منذ الساعة ، فلن يسمع لعزفي أو يصفق لي طيلة العمر أحد غيرك ، ولن أتردد على الاجتماعات أو أغشى الحفلات . سأوقف لك وحدك جهود فني والهام قلبي ونبوغي إن

كنت أحظى بنصيب منه ، وسأحصل على رزقي من اصلاح الأوتار كعامل بسيط قانع ، ولن أعود فناناً إلا لك وبالقرب منك ... أملأت الثقة والطمأنينة قلبك الآن ؟ .

فلم تزد على أن قالت :

آوه ! يا صديقي ...

وألقت بنفسها على صدري وهي تنتفض ، وشعرتُ بصدرها يعلو ويهبط في رعدة سريعة ... ثم هدأ قليلاً قليلاً ... أينا كان أكثر استمتاعاً بالنشوة الروحية التي غمرتنا في تلك اللحظة ؟ ... أعتقد أن نصيبي منها كان النصيب الأوفر .

ولما تمالكت صاحبتي قواها واستجمعت فكرها ، أرادت أن تحتج وتبرىء نفسها من قبول ما دعته عملاً من أعمال الجحود بنعمة الله عليّ ، وهو ليس في الحق غير تقاعد سهل فرح ، فلم يسعني إلا أن أقول في حزم :

لا تعودي إلى هذا الموضوع ، فعهدي بين يديك لا أنقضه .

آه يا سيدي لشد ما يكون العاشق محقاً في بذل نفسه بسخاء كلما سنحت الفرصة ! ولشد ما يشعر بألوان من اللذة تتجدد عذوبتها عند كل خطوة يخطوها في هذه السبيل ! وكذلك

أحسست بلذة تجلّ عن الوصف وأنا أكرر لها عهدي الذي لا يُنقض ولا يتغير .. وقد غمرني فيض من الغبطة والابتهاج حينما قلت لنفسي :

إنها حقاً كل شيء لي ، إذ أنني أعطيتها كل شيء ، ولم يعد لي في الحياة إلا هي وحدها !

ما أغنى الإنسان يا سيدي إذا تجرد من جميع مطامعه ومنافعه وضروب زهوه في سبيل المخلوق الذي يحبه !

كفت « جولي » عن المقاومة ولم تعد تبدي اعتراضاً ، بل قبلتْ في بساطة ويسر القربان الذي قدمه إليها حناني ، أي نزولي عن أحب الأشياء إلى قلب الفنان وأشدها امتلاكاً لوجدانه : وهو المجد الباطل .

وبعد قليل من الوقت ، قالت في صوت هادىء رقيق :

فلنعد إلى حيث كنا . لقد طالت غيبتنا يا صديقي :

كانت على حق في هذه الدعوة ، فعدنا أدراجنا ، ودخلنا الحياة الصاخبة مرة أخرى .

الفصل الثامن

لم يقلل ذلك من شغفي الشديد بفني ، وقد غدا برمته منذ ذلك الوقت وقفاً لحبي .

ولما امتنعت عن الاختلاف إلى القصور ، واعتزلت تصفيق المجاملين اللاهين وتجنيب إطراء الملحين ، شعرت براحة التحرر واستمرأت طعم الخلاص ، إذ كف الناس عن الوقوف بيني وبين هناءتي ، ولم يعودوا يشغلونني عن الاستمتاع بهذه الهناءة .

ولم يكن بد من أن يستهدف انقباضي عن الناس للنقد اللاذع ، فكثيراً ما كان الغلام الذي يصاحبني كدليل في تنقلاتي خلال هذا الأقليم ، يحمل اليّ الأحاديث التي يسمعها خاصة بي . وكان أرقها وأكثرها حلماً يتلخص في التوكيد بأني غريب الأطوار كالعميان جميعاً ، أما غيرها فكانت تعلن أني مجنون .

وذات مرة أضاف الغلام الى ما سبق : « يقال شيء آخر

غير هذا يا مسيو سان فلوران . يجزم الناس في بعض أحاديثهم بأن ربة « الباجورو » مشغوفة بك ، وانها هي التي تمنعك من أن تغشى القصور كما كنت تفعل في سابق الأوقات .

أمرته بالصمت حتى لا يتمادى في مثل هذا الحديث ، ولكن شائعة السوء التي أشار إليها الغلام بقيت الهم الوحيد الذي يكدر صفو سعادتي ، وعلى الأخص لأني لا أستطيع دفعاً لها ولا أملك وسيلة للقضاء عليها ، ولم أجد من الحكمة أن أحمل إلى « جولي » نبأ هذه الشائعة ، إذ لم يكن لينتج في نفسها غير الألم ، لأنها من الإباء وعزة النفس بحيث لا يمكن أن تستكين وتتخاذل أمام رأي البيئة وحكمها مع إيمانها الراسخ بأنها بريئة من كل ما يستوجب اللوم ، وربما اعتقدت بدافع غيرتها العنيفة إذ أنبأتها بما سمعت ، أني أتلمس تعلة للاقلال من زيارتها .

ومع ذلك فإني لم أكن أقوى على اتيان أمر فيه مقاومة لهذا الحب الذي يؤلف بين قلبينا .

وقليلاً قليلاً أصبحت أقضي جل وقتي في قصر « الباجورو » ، وامتنعت عن إعطاء دروس موسيقية ، واختصرت عدد عملائي إلى أقصى حد مستطاع ، ولجأت على الأخص إلى هذه المهنة الآلية ، مهنة إصلاح أوتار البيان التي

مازلت أزاولها إلى اليوم ، لتهيء لي أسباب الموارد المالية الضرورية التي تتطلبها الحياة اليومية ، بينما كانت نفسي ـــ وقد تبدلت ـــ تعيش في عالم آخر غير عالم الحقيقة والواقع ، وتلك أقدار عجيبة ! أليس كذلك يا سيدي ؟ فهذه المريضة التي يهملها زوجها وسط غابة موحشة كأنها صحراء ، وفي جوف قصر صامت حزين يبدو في عبوسه وعزلته بين الشجر كالشبح ، وهذا الضرير المسكين الذي يشتغل باصلاح الأوتار ، ويجوب الطرق ويغرق وقته في النهوض بأعباء تافهة ، قد تذوقا ، خيراً من كثير من الناس الذين اشتهروا بأنهم سعداء ، بعض الانفعالات والعواطف ، هي من أروع وأقدس ما يستطيعه القلب الإنساني !

استمرت هذه الحياة التي نسجت خيوطها من سعادة تجل عن التصور ، أكثر من عامين .

نعم يا سيدي ، كنت أثناء هذه المدة سعيداً إلى أقصى حد ، إذ كنت أحب وكنت محبوباً . أكان في استطاعة الأعمى الماثل أمامك أن يأمل يوماً في مثل هذا الحظ السعيد ؟! وقد حدث في كثير من المرات أنني كنت أقضي في قصر « الباجورو » النهار كله ، وظل مسيو « دسكاربي » كما كان في الأيام الأولى لصلتي بزوجه ، خالي النفس من ظلال الشك .

ولقد قلت لك إنه لا يخشى من هذه الناحية عازفاً ضريراً ، وفضلاً عن ذلك فانه لم يكن يولي إمرأته إلا النذر اليسير من انتباهه واهتمامه ، لأنه لاه عنها بكثير من الرغبات والأهواء التي تستأثر بفكره وتسيطر على وجدانه !

غمرتني « جولي » بفيض من الحنان المتأجج والإعجاب الدقيق الوهاج حتى استيقنت بفضلها في ذلك الوقت أنني أملك قسطاً من العبقرية . وربما كنت كذلك حقاً في تلك الفترة من حياتي ، ومع ذلك فاني لم أجرؤ على الجهر بأية كلمة عن الحب لهذه المرأة التي أعبدها ! ألم أقل لك إني لم أُقبِّل قط، حتى شفتيها وهي على قيد الحياة ؟ ولكني أعترف بأني بحت لها بأقوى وأعنف عبارات الحب في نغمات معبرة حينما كنت أجلس إلى البيان بعد الظهيرة وأعزف لها ساعات بأكملها وأعتقد أنها هي أيضاً قد نالت على يدي نصيباً من السعادة .

○○○

نطق « سان فلوران » بهذه الجملة الأخيرة في صوت حالم مكتئب استدر حناني ، فتناولت يده فضغط بها يدي في تأثر شديد ، ثم عاد إلى إتمام حديثه :

بعد انقضاء عامين وستة شهور ، كنت في أثنائها الضيف المثابر المألوف لقصر « الباجورو » صادفتني تجربة لم تكن في الحسبان ، أثرت مرة أخرى تأثيراً بالغاً في قلبي وقلب صاحبتي وهزت أعمق الأوتار فيهما هزاً عنيفاً .

حدث أن وزير الفنون الجميلة في ذلك الوقت كان من أهل مدينتنا الصغيرة ، ودعاه بعض ذوي الجاه والنفوذ في الاقليم إلى زيارته لشهود احتفال يقام خصيصاً للترحيب به وتكريمه ، فقبل الدعوة ووعد بأن يستصحب معه بعض الفنانين من أعضاء « الكوميدي فرانسين » و « الأوبرا » وكانت النتيجة أن أعدت مباهج بديعة خلبت الألباب في أنحاء المقاطعة جميعها ، واقترح عليّ القائمون بتنظيمها أن أشترك في الحفلة الموسيقية التي تقرر أن تكون حلقة رئيسية في سلسلة هذه المباهج ، بصفتي الفنان المحلي الذي أحرز الشهرة وبعد الصيت .

رأيت أن أعرض الأمر على « مدام دسكاربي » فقلت لها :

طُلب مني أن أعزف أمام الوزير ، وسأرفض من غير شك .

فأجابت :

لا ترفض . سيكون الاحتفال رسمياً خالصاً ، وقد دعتك السلطات للاشتراك في تكريم عضو من أعضاء الدولة ، وليس في هذا بطبيعة الحال ما يفزعني .

ثم افتر ثغرها عن هذه الضحكة الجميلة الصافية التي ألفتها منها ، فوقع رنينها من نفسي موقع نغمات الفرح والابتهاج . وعادت تقول :

ومهما يكن من شيء ، فإني لا أغار من وزير ! يجب أن تلبي الدعوة تجنباً لما عسى أن يجره عليك الرفض من عداوة ومتاعب ، وقد ينظر إليك أهل البلاد نظرة ملؤها النفور والازدراء والكراهية .

ـــ أوه ! إني لأقيم وزناً لهذا كله !

ـــ عدم مبالاتك لا يغير من الواقع شيئاً . ينبغي أن تحقق الرغبة التي أبديت لك . وفضلاً عن ذلك ، فإني أشعر بالسعادة إذ تسنح لك فرصة لاظهار مواهبك أمام جمع من أولي الأمر وذوي النفوذ والسلطان ، وفي هذا بعض العوض من نجاح السهرات الذي حرمته بمحض إرادتك ابتغاء مرضاتي يا صديقي المسكين .

ـــ أتسمين هذا حرماناً ؟

فليكن شيئاً آخر غير الحرمان ، ولنتفق على أني أجيز لك أن تسطع بفنك في سماء الحفلة ... وأذهب إلى أبعد من هذا فآمرك بإجابة الدعوة .

تبينت من قولها ولهجتها الصدق والاخلاص في إبداء رغبتها ، وأدركت أنها لا تشعر في هذه المرة بأي أثر من آثار الغيرة . وفي الحق أن أهل القصور كانوا يكرهون الجمهورية ووزيرها ، فلن يشهد الحفلة إلا فريق من الموظفين وبعض رجال الطبقة المتوسطة الجمهوريين وعامة الناس ، وليس فيهم دون ريب منافس لجولي يبعث في نفسها الخوف والقلق . وقد اعتزمتْ الذهاب إلى الحفلة ، استيقنت أنها تستطيع إنفاذ عزمها في اطمئنان . ولم أخش حدوث ما يكدر مزاجها .

بقيت تفصيلات هذا الاحتفال جميعاً قائمة في ذهني قوية واضحة ، لأنها سجلت في كتاب حياتي تاريخاً لا يقوى على محوه النسيان .

وقد تعتقد يا سيدي أن فكرة ظهوري أمام جمع هائل من الناس ، احتشدوا للاستماع لعزفي واختبار فني ، وأمام عضو عظيم من أعضاء الدولة ، وفنانين جلهم من الأعلام النابهين ما في ذلك

ريب ، مما يجعلني أستشعر ضرباً من الخجل أو في الأقل لوناً من الاضطراب ، ولكني أعلن إليك ، حتى ولو حسبتني غارقاً في الخيلاء ممعناً في السخف ، أنني لم أحس بشيء ألبتة مما ذكرت . لأني لم أكن أعرف غير حكم واحد أعتز برأيه وأبتهج لحكمه : وهذا الحكم هو جولي دسكاربي ولم يكن يشغل فكري ووجداني غير صاحبتي والرغبة المتأججة في ارضائها والظفر بإعجابها ، فنسيت ما عدا ذلك كله : وأقبلت على التجربة في شجاعة فريدة وهدوء منقطع النظير .

أقيم الاحتفال فيما يشبه قاعة أنشئت لوقتها من الألواح الخشبية والأستار الحريرية وأغصان الشجر المورقة . وجرى الجزء الأول منه في مجراه الرسمي البحت ، وكان قد أعد خلف المنصة مكان على شكل غرفة لجلوس الفنانين في انتظار أدوارهم . فأجلست مع هؤلاء القادمين من باريس ، ولكني كنت منصرفاً بذهني كله إلى « جولي » وما أتوق إليه في حضرتها من نجاح يرجع إليها نصيب منه كبير . فلم أفكر مطلقاً فيما عسى أن يسترعيه شخصي من انتباه الزملاء القادح الساخر فيما أرجح ، وهم يرون كما قيل لهم فنان الريف العظيم . ومن حسن الطالع أنني لم أفكر في هذا ، إذ ليس أدعى إلى قلق الضرير من الشعور

بأن نظرات عدائية أو تهكمية تُسدَّد اليه وتثقل عليه . ولو استحوذ عليّ هذا الشعور ، لكان من الجائز أن يشل قواي في اللحظة الحاسمة ، ولكني كما قلت لك ، كنت أعيش في تلك اللحظات بمعزل عن العالم وفوق مستوى المنافسات البائسة وألوان الغيرة البلهاء البغيضة التي تولد من مزاولة المهنة .

ولما ألقى الوزير خطابه ، كنت في فترات متقطعة أعي منه بالكاد بعض فقرات متفرقة جعلتني أرى أنه أكثر وداً وأقل انتفاخاً مما كنت أتوقع . وكان الوزير بادي السرور لأنه وجد نفسه بين عشيرته وفي مسقط رأسه ، وقد استنتجت هذا من الحماسة الخالصة غير المألوفة التي تجلت في هذا الاحتفال الرسمي . وكان الهتاف يتصاعد من جميع النواحي عالياً صاخباً ، ويتلاشى قليلاً ثم يعود قوياً عنيفاً ، ينتشر ويترامى حتى يستوفي أنفاسه عندي .

ما أجمل الجماعة التي كانت في هذا الحفل فيما أعتقد ! ولكني كنت ذاهلاً عنها فلم أعرها اهتماماً ، لأن مخيلتي كانت مليئة بمنصة الشرف التي تحتل « جولي دسكاربي » مكانها في الصف الأول منها ... كنت « أرى » صاحبتي يا سيدي ، إن صح هذا التعبير ... هكذا كان التوتر الخارق الذي استولى على ملكاتي في تلك الساعة .

لما فرغ الوزير من القاء كلمته . شرع الفنانون في العزف والغناء . وكانت أصواتهم تتفتح وتتجاوب في قوة وانسجام تحت تلك القبة الرقيقة التي حليت على عجل بالأغصان والبيارق وهم ينشدون بدائع الأغاني ، وروائع الألحان ، وسمعت حماسة القاعة تعلو نامية مدوية كهدير المد الصاعد المندفع ، وحينئذ توهجت جذوة حبي بفعل هذا التأجج العام وخيل إليّ أن هذا الإطراء المتدفق ، موجه إلى « جولي » وقد عقد لها لواء النصر المبين . وفي تلك اللحظة رفعت الستارة التي أمامي ، وساعدني دليلي على ارتقاء الدرجات المؤدية إلى مكان العزف ، ثم سار بي إلى البيان ، فجلست إليه .

هدأت القاعة وتلاشت الأصوات وخيم على المكان صمت عميق ، فشرعت في العزف .

وما أن أطلقتْ الأنغام الأولى ، حتى خيل إليّ أني لم أعد أنا الذي أعزف ، بل أن فناناً خلق من توه في دخيلتي ... استقدمت للألهام الباطني الذي استحوذ على شعوري ووجداني ، وأحسست ، في صخب انفعال مستمر ، بإعجاب هائل جامح يندفع نحوي من الجماعة كلها . كان البيان يغني ويسمو في الغناء . غنّى في هذه المرة أيضاً نشيد حبي الوحيد الذي يغنيه

دائماً ، ولكنه ازداد قوة في هذه الحفلة بفضل هزات الطرب التي استولت على الجمع الحاشد حتى بلغ سمعي صوت أنفاسه اللاهثة : كانت النغمات كأنها صادرة عن أرعن حنون وبيان قوي في انسجام بلغ غاية الجمال والروعة .

كنت في ذلك اليوم أعظم مما كنت في أي وقت سابق ، وقد ارتفعتُ فوق طاقتي ومواهبي الفنية من غير شك ، ومن المستحيل عليّ اليوم أن أجد مرة أخرى في مخيلتي التي أصابها الحزن بالوهن والإمحال ، وفي ذاكرتي التي خيم عليها الظلام حيث لم يعد انسجام النغمات تتصل حلقاته إلا في صعوبة وعسر ، وفي الحركات نفسها التي تصدر عن أصابعي الصدئة الشاكية ، من المستحيل عليّ اليوم أن أجد في كل أولئك مرة أخرى هذا الغنى في الابتكار ، وهذه المرونة في العزف اللذين كانا في ذلك اليوم المشهود خارقين للمألوف وظفرت بالتصفيق والهتاف والإعجاب الذي ليس وراءه غاية لمستزيد ، وانحازت إلى جانبي النعرة المحلية ــ وهي كما تعرف قوية في اقليمنا الجسكوني ــ فأضفت عليّ نصراً حقيقياً طغى على النجاح الذي ناله الفنانون الباريزيون جميعاً . ومن الحقائق التي يصعب تصديقها ، أن هؤلاء الفنانين لم يحقدوا عليَّ ، بل سعوا إليّ حينما عدت إلى مكاني خلف

الستار ، الواحد بعد الآخر ، وأهدوا إليَّ وهم يشدون علي يدي ، باقة من الثناء العطر . وقد شعرت في تهنئتهم بحرارة الحماسة المدوية التي كانت لا تزال مستولية على الجمع في القاعة .

ما كان يصح أن أكون فناناً ، بكل ما تولده المهنة من ألوان الضعف ، إذا لم يكن هذا المجد الوافد علي غير انتظار قد أثملني قليلاً . ولا أخفي عليك إني نسبته بأكمله ، على الأقل بالفكر ، إلى هذه التي كانت ينبوع إلهام لجهودي : ومن أجل ذلك ، توجهت نفسي ، في خشوع العابد المتبتل ، بآيات الاحترام والتبجيل إلى « جولي دسكاربي » .

وبعد انتهاء الحفلة الموسيقية ، استدعاني الوزير ، وأعلن إليّ في حضرة وكيل المديرية نراك Nèrac وعمدة بوزيه Buzet أنه لا يجوز لموسيقار مثلي أن يقبع مغموراً في ركن من الريف ، وأن من الواجب عليّ الذهاب إلى باريس فيضمن لي بصفته الرسمية مستقبلاً باهراً .

ثم أضاف :

ــ أني لا أقطع على نفسي عهداً قد يصعب تحقيقه . لأن نجاحك أمر مؤكد به وسيتحقق من غير شك ساعة عرض فنك في باريس .

وبينما كان الوزير يتكلم ، هاجمتني أشتات من الأحاسيس المختلطة دفعة واحدة ، وفي الوقت عينه ، لمستُ حقيقة هذا الظفر الفني الذي تطلعت إليه ، على استحياء ، أحلام شبابي في مستهل حياتي الموسيقية .

قلت في نفسي « باريس » ستتيح لي أكثر مما أتاحه لي الريف . ستتيح لي في كل يوم وفي كل مساء مثل هذه النشوة . والاتصال المستمر بين مهارتي التي أستطيع أن أومن بأنها عبقرية وبين الجماعات التي تسيطر على لبها هذه العبقرية ستهيء لمواهبي الطبيعية أسباب النمو والكمال في بيئة جديدة ، يلهمني شعوري بأنها فياضة بحياة كلها ثقافة وتعشق للجمال . وفضلاً عن ذلك ، فإن إقامتي بباريس تنتج الازدهار التام لحظي كفنان ! » .

ولكني سمعت صوتاً يهتف من أغوار نفسي باسم « جولي » فقضى بقوته على كل ايحاء للكبرياء والطموح والفن جميعاً ... كان علي قبل كل شيء آخر أن أستشير حبي وأن أحميه وأرعى أمنه وسلامته : هل تستطيع « جولي » أن تقتفي أثري وتجتمع بي في باريس ؟ وهل تقبل فراقاً مؤقتاً إذا دعت الضرورة إلى ذلك ؟ وما دمت لم أقف على رأيها في هاتين

النقطتين ، فليس في مقدوري أن أتخذ قراراً حاسماً فيما عرض عليّ .

وعلى ذلك لم أعتزم شيئاً ولم أستقر على أمر . وكل ما فعلته أني شكرت للوزير عطفه في رقة واحترام ، وأجبته بأني في حاجة الى قليل من الأناة والتريث قبل البت في مثل هذا الشأن الخطير .

فقال الوزير :

ــ يا مواطني العزيز ، لا تسرف في التروي ، واستفد بهذه المناسبة السانحة وسآسف إن رأيت أحد مواطني يفوِّت على نفسه فرصة تحقق له مستقبلاً باهراً على حين أن مروري بالحكم يعبِّد له السبيل .

فشكرت له كريم عواطفه مرة أخرى ، ثم حييته وانصرفت مع دليلي . وكنت أتمنى أن أتحدث إلى « مدام دسكاربي » في تلك اللحظة عينها ، ولكنها كانت قد غادرتْ المكان .

مكتبة
t.me/t_pdf

الفصل التاسع

قضيتُ الليلة التي تلت الحفلة في سهاد وقلق ، ولعلي أن أعطيك عني فكرة ضعيفة إذا اعترفت لك بأني بحثت ونقبت جهد المستطاع عن وسيلة تعينني على التوفيق ، في أحلامي الخاصة بمستقبلي ! بين العاطفة التي تربطني بجولي ، وبين الرغبة المستعرة في أن أحيا حياة فنية بالغة الذروة وأستمتع بشهرتي إلى أقصى حد ممكن في الوسط الوحيد في العالم الذي يسطع الفن في سمائه كأقوى ما يكون النور روعة وبهاء ، وتحصل فيه الشهرة على قيمتها الكاملة ومكانتها الخالصة ، وهذا الوسط هو باريس !

التمس لي العذر يا سيدي ، فإن النجاح الذي أحرزتُه خلال النهار ، أثمل عقلي الفتيّ : فتنبهت خميرة الزهر الناعسة في نفس الفنان دفعة واحدة .

وفي نحو الساعة الرابعة صباحاً ، ثقلت جفوني وخدعت

في عينيّ سنة من النوم العميق ، ثم أيقظتني أصوات الحركة في القرية عند بزوغ الفَجر ...

ربما تكون يقظة الضرير من أشق ما تستطيعون تصوره أنتم ، لأن معنى الاستيقاظ عندكم هو الانتقال من ظلمة الليل إلى نور الشمس ، أما عندنا نحن ، فإنه لا يخرجنا من الظلام ، وقد يكون تذكيره إيانا ببؤسنا سبباً في أنه لا يبعث في نفوسنا أي أثر من آثار البشر والابتهاج ، بل على العكس من ذلك . فإني أنا الذي أخاطبك ، لم أستيقظ قط إلا والاكتئاب في صحبتي والانقباض يجثم على صدري .

في ذلك الصباح ، لم أعد أجد في دخيلتي دخان الزهو الذي ملأني في البارحة ، وبدا لي كل شيء في حظي ومستقبلي مضطرباً حزيناً . والأمر الوحيد الذي تبينته في جلاء هو : أن قلبي لا يستطيع البتة أن ينزل عن لقاء جولي .

وما أن تصورتُ لحظة حرماني مجلسها ، ووحدتي في باريس ، حتى جمد الدم في عروقي ، إذ انقضت عليّ هذه المخاوف الأليمة التي تتملكنا في بعض الأوقات ، نحن البائسين ذوي العيون المغلقة ، حينما نعتقد أن دليلنا قد نسينا في مكان نجهله .

لم أجد من نفسي الشجاعة على الانتظار إلى وقت الأصيل . أي إلى أن تحين الساعة التي تعودتُ على أن يقتادني فيها دليلي إلى قصر « الباجورو » فخرجت أبحث في القرية ـــ وكنت أعرف سبلها في سهولة ويسر ـــ عن الغلام الذي يلازمني في الطريق . ولما وجدته ، طلبت إليه أن يعد المركبة المتواضعة بجوادها الصغير التي استخدمها في الانتقال إلى حيث يستدعيني إصلاح الأوتار .

وبعد ساعة أو تزيد قليلاً ، بلغت قصر صاحبتي ، وهناك عاملني الخدم في ازدراء أليم لم يلبث أن استحال إلى امتهان سافر جارح . ولم يخشوا أن أشكو أمرهم إلى سيدتهم . ولما كان قدومي في تلك الساعة غير منتظر ولا مألوف ، فقد تركوني في بهو القصر مدة طويلة بحجة أن « ربة القصر لم تنهض بعد ، وأن الوقت مبكر لا يسمح بإزعاجها ولكني على يقين من أن أحداً ما كان ليعلن إليها مجيئي ، لولا أنها عرفت ذلك من صوت الجلاجل المعلقة في عنق جوادي أثناء الذهاب به إلى الاصطبل .

ولما تحققتْ أني في انتظارها ، أرسلت إليّ قهرمانتها لتنبئني بأنها قضت ليلة سيئة أصابت بالضر صحتها ، ولكنها

برغم تعبها ستغادر الفراش من أجلي ، على أن تستقبلني في الغرفة الصغيرة المجاورة لغرفة نومها .

إذن كانت مريضة ! وكانت تعاني قسوة الألم ! وكنت السبب مرة أخرى في إيلام هذه السيدة العزيزة التي أحبها من أعماق قلبي !

أدركتُ بالالهام كل ما مر بنفسها بعد حفلة بوزيه . ولست أشك في أن الصفاء العجيب الذي يلازم حنانها الفذ ، قد كشف لها عن خطر لم تتبين كنهه بعدُ على وجه الدقة . ولكنها حينما رأتني محاطاً بأشخاص رسميين يتحدثون إليّ ، شعرت بأن فُرْقة غامضة ترنو إلينا وتهدد سعادتنا هل يعرضون علي عملاً في أجن Agen أم في بوردو أم في باريس ؟ لم تطمئن إلى جواب يقضي على حيرتها ، وكل ما ثبت في حدسها ، أن مؤامرة تدبر لإبعادي عنها .

لم ألبث أن اعتزمت أمراً يرضيها ، وقد يكون في سرعة البت هذه ما يكفِّر بعض التكفير عما انتابني من التردد في البارحة : اعتزمت ألا أتحدث إليها مطلقاً في شأن ما عرضه عليّ الوزير ، وقررت بيني وبين نفسي أن أرفضه رفضاً حاسماً .

○○○

وما أن رأتني مقبلاً عليها ، حتى بادرتني بالسؤال في صوت تحاول عبثاً أن تكسبه الهدوء والثبات :

هيه ! ماذا يراد بك ؟

تظاهرت بأني لم أفهم الغرض الذي ترمي إليه ، فعادت تقول في لهجة تنم على نفاد صبرها :

ماذا يريد بك الوزير والمدير وجميع هؤلاء الأشخاص الذين أحاطوا بك بالأمس بعد نجاحك العظيم ؟

فأكدت لها أنهم لا يريدون شيئاً جديداً بمصلح الأوتار المتواضع في قرية بوزيه ، وقلت :

أراد السيد الوزير أن يعلن فقط اهتمامه بأمري ، ويبدي استعداده لأن يقدم بنفسه قطعة موسيقية من وضعي إلى المسابقة القادمة ، إذا أردت الاشتراك فيها .

فسألت جولي :

ـــ وهل هذا كل شيء ؟

فكذبت مضطراً وفي حزم :

وما أن سمعتْ جوابي حتى صاحت :

ـــ ما أسعدني !

أفلتت من بين شفتيها صرخة الأثرة هذه ، فغمرتني

بالغبطة والفرح وأؤكد لك يا سيدي أني بنزولي عن سراب باريس وعن النجاح والثروة لم أشعر قط بأني بطل عاطفي ... ولم أكن في الحق من البطولة في شيء ، ولكن إرادتي اندفعت فقط وراء غريزة بالغة القوة دلتني على طريق السعادة ... إذ ما قيمة المجد والمال عندي . وأنا بعيد عن « جولي » إذا كنت لم أعد أستطيع الاستغناء عنها والصبر على فراقها ؟!

أمليت في المساء نفسه خطاباً إلى الوزير يتضمن الرفض القاطع لما اقترحه علي .

شكرت له عطفه . ولكن أعلنت إليه عجزي عن الإفادة من هذا العطف : لسببين ، الأول شعوري بافتقاري إلى الأسباب التي تحقق لي النجاح في باريس ، والآخر رغبتي عن ترك بلد تحتجزني من فيه أعباء وروابط الأسرة .

وعرفت بعد هذا ، أن مواطني الذين يرعونني ساءهم مني إضاعة هذه الفرصة جد الإساءة ، وأصبح الناس على حق إذ تبينوا فيّ مرة أخرى غرابة وشذوذاً . وهذه نتيجة لا تخفى على فطنتك كما أعتقد . قيل عني « كيف ؟ هذا الموسيقار الريفي المغمور يسعده الحظ بأن يأتي وزير الفنون الجميلة لزيارة بوزيه ، ويكون من أهم ما في حفلة استقباله والحفاوة به أن يستمع إلى

عزف فنان القرية ، ويعرف هذا الفنان كيف يثير إعجابه ، فيتلقى منه مقترحات كريمة سخية لم يتطلع إليها أمله ، تضمن له مستقبلاً زاهراً عظيماً في باريس ، ثم يكون من الحمق والجنون بحيث يترك فرصة كهذه تفلت من بين يديه ! » .

من السهل عليك يا سيدي أن تتصور مبلغ الهجمات التي وجهت إليّ وكان عليّ احتمالها ، ليس فقط من جميع الذين اهتموا بأمري في سابق الأيام ، فسرهم نجاحي بدافع العاطفة الخالصة أو بدافع الكبرياء المحلي بالمواطن ، ولكن أيضاً من جميع الذين لا يبالون شيئاً . فالجماعة الأولى لا تغفر لي أني بعثت اليأس في نفوسهم وأحبطتُ سعيهم ، والجماعة الأخرى تأخذ على أني خيبت الأمل الذي كانت تنتظر البلاد تحقيقه . وليس هذا بمستغرب إذا عرفتَ أن « بوزيه » كلها ظل يداعبها حلم واحد طيلة أربع وعشرين ساعة : هو أن تكون ممثلة في باريس ، وأن يكون لها في العاصمة « رجلها العظيم » ! فلما تبدد هذا الحلم ، اهتاجت الوطنية المحلية ، وكانت على حق من غير شك .

كان لعملي دوي هائل ، وتحدث به الناس في القصور وفي المشارب على السواء ، وترامى خبره إلى « نيراك » ثم تناهى إلى

وكيل المديرية فأبدى استياءه الشديد من الطريقة التي أجبتَ بها الوزير على ما تفضل به عليّ من مقترحات خيرة ، وثبت في رأيه أن سيكون لعملي هذا أثر سيء في نفوذه الشخصي . وهذا هو الجانب المضحك يا سيدي من هذه المأساة العاطفية التي افتديت (إذا لم تبد لك الكلمة أكبر وأضخم مما ينبغي) فيها حبي بمستقبلي كفنان .

ولكن النقد الإجماعي الذي استهدفت له ، لم يلهمني أي لون من ألوان الندم على القرار الذي اتخذته ، أو يبعث في نفسي أي ميل إلى الرجوع فيه ، ولكنه جعلني أحس بعد مرور فترة من الزمن ، مرارة هذه الفدية ، بما سببه لأعصابي من اضطراب وهياج . إنك تفهم حالي في غير مشقة : أي فنان لم يداعبه حلم المجد ؟ وأي فنان لم تستهوه باريس ؟

لم يكن من المستطاع أن تظل صاحبتي وقتاً طويلاً وهي تجهل حادثاً كان له ، عقب وقوعه مباشرة ، أثر بالغ ودوي شديد في البيئة التي يحيا كلانا فيها .

عرفتْ « جولي » من أخت زوجها أمر المقترحات التي عُرضت عليّ والرفض الذي قوبلت به . ومن حسن الحظ أنها لم تقف على هذه الأمور إلا بعد انقضاء شهر على حدوثها ، أي

بعد أن أصبح من المستحيل العدول عن القرار الذي اتخذته . وشعرت حينئذ بنوع من الفرح المتواضع المشوب بقليل من الأسف ، وهذا الشعور الذي بدا لي منها ، نفذ إلى أغوار نفسي وملك عليّ أعمق عواطفي . وأؤكد لك أنه أدى لي ثمن ما صنعتُ اضعافاً مضاعفة .

« ... من أجلي ... لكي تبقى إلى جانبي ... رفضتَ وأصررت ! » .

كانت تردد هذه الكلمات في كل حين ، ثم تتناول يديّ في حنان أخاذ وتعتمد بثغرها عليهما ، كأنها تريد أن تشكر لهما زهدهما في مزاولة حركتهما النغمية بعيداً عن هذه التي تفضلت وأسبغت عليهما حبها العميق !

أليس صحيحاً يا سيدي أن في طريق الحياة مواقف سعيدة ، تخلق في دخيلتنا ومن حولنا هدوءاً عظيماً شاملاً ؟ ... فترات تشابه بعض آصال الخريف في بلادنا هذه ، يخيم عليها سكون هائل عجيب إلى حد أن يجعل مرور الساعات نفسها غير ملحوظ ولا محسوس . كأن الزمن يغفو في هذه الفترات وينسانا في نعيم الأمن والدعة ؟

وكذلك تذوقنا ، أنا وجولي ، حلاوة فترة من هذه الفترات

التي يحابيها القدر برحمته ، في الشهور التي تلت حفلة « بوزيه » ورفضي مغادرة جسكونيا .

مرت هذه الأشهر صافية خالصة من أية عاصفة إلى درجة لم يألفها ولم يستمتع بمثلها من قبل ، ما بيننا من إخاء غرامي ، ولم تعد غيرة « مدام دسكاربي » تقلق بالها وتقض مضجعها ولم تعد تعذبنا هذه الغيرة ، ووجد قلبها السكينة والسلام فيما دعته ، خطأ من غير شك ، تضحيتي في سبيلها ، واستيقنت منذ ذلك الوقت أن لا شيء يستطيع التغلب على ما يتملكني في كل لحظة من شعور الافتقار اللجوج إلى مجلسها وشخصها وحنانها .

وكان من أثر زهدي في الطموح ، وتجنبي الحازم لأحابيل الشهرة وضروب إغرائها ، أن امتلأت نفسي بفيض من البشر الفريد العجيب . وإذا وقف الفنان حبه لفنه والمرأة التي تلهمه دون سواهما ، هيأ لعبقريته أصلح الأجواء دون ريب . لم أنتج قط مثل ما أنتجت في تلك الفترة ، ولم أسيطر قط على المواهب التي منحني الله إياها مثل ما سيطرت عليها في ذلك الحين . وهنا أفضي إليك بأمرين : الأول أنه لن يعرف إنسان في هذا العالم أثناء حياتي أو بعد مماتي ما وضعت من موسيقى حينذاك .

والآخر أني لم أعد أملك اليوم أية موهبة أو أي أثر من آثار النبوغ ، وهذه حقيقة أعلمها وأعلنها في غير مواربة . ولعلك أن تصدقني بعد الذي ذكرت ، إذا اكدت لك يا سيدي أن الموسيقى التي وفقت إلى وضعها في ذلك الوقت السعيد الخصيب ، كانت تشتمل فيما أرجح على ما يكسب شهرة ، في باريس نفسها ....

○○○

نطق الرجل الطيب بهذه الكلمات الأخيرة في حرارة وانفعال يدلان أبلغ دلالة ، برغم الألفاظ نفسها ، على أن الفنان الكامن في شخصه ، بأحلامه وطموحه ، لم يصبه العفاء الذي أراد أن يعبر عنه بكلماته . ألم يقم لدي البرهان على أن مواهبه الفنية لم تزل حية حينما أتاحت لي المصادفة الاستماع إلى عزفه منذ ساعات ؟! .

○○○

سكت « سان فلوران » قليلاً ، ثم رفع رأسه وتابع حديثه :

ـــ استمرت فترة الدعة اللذيذة هذه خريفاً بأكمله ، ثم شتاء برمته ، وتلاه الربيع فلم يأتِ بما يكدر صفوها .

غير أني لاحظت على « جولي » في مستهل شهر أبريل من ذلك العام ، أن أمراً يشغل بالها وأدركت أن حالها هذه تزداد يوماً بعد يوم دون أن يبدو منها ما يدل على رغبتها في الإدلاء إليّ بما يشغلها .

كانت تسيطر عليها فكرة ، احتفظت بسرها في أعماق قلبها ، ولم تبح بها حتى لي ووجدتها كل يوم تكب على قراءة الصحف في إمعان شديد ، وعهدي بها لا تأبه لما يجري في العالم الخارجي . وكنت كلما وجهت إليها سؤالاً في هذا الشأن . تجنبت الإجابة في ظرف ورقة ... ثم شعرت بعد أيام قلائل بأن قلقها قد استحال إلى اهتمام ، فاستيقنت أن ما ألمّ بها أمل وليس هماً .

وانتهى الأمر بأن حصلت ذات يوم على مفتاح اللغز ... تحدثت إليها صراحة في موضوع صحتها وما لاحظته عليها ، فشعرت بها مضطربة الأعصاب إلى أبعد حد ، ولم ترد على أسئلتي الخاصة بصحتها إلا في حدة وإيجاز :

ـــ نعم .. الأمور تسير سيراً حسناً .. ما أسعدني ! أتعرف النبأ ؟

ـــ نبأ ؟

ووفق على قانون الطلاق !

ثم وقعت بين ذراعي في غير كلفة كما تفعل الزوج ، وهي تبكي من فرط السرور .

لم أدر ماذا أصنع ، فبقيت جامداً صامتاً مرتبكاً .

فعادت تقول :

ـــ ما هذا ؟ ألم تفهم ؟ في هذا القانون خلاصي وفيه سعادتنا التي نرجوها ونرتقيها ! سأطلب الطلاق ، ولن يقف مسيو « دسكاربي » في سبيل إتمامه ، لأنه يتمنى من أعماق قلبه أن يقطع ما بينه وبيني من صلة في أقرب وقت مستطاع ، ويقيني أنه سيساعدني حتى أحصل على مبتغاي وستتركني أسرتي أتمتع بحريتي ومع ذلك فإني لا أعترف لأي إنسان بحق التدخل في شؤوني ، والوقوف حائلاً بيني وبين حبي . سأكون وحدي سيدة أعمالي ، وعندئذ أحقق زواجي منك . ثم نرحل معاً الى باريس حيث تنال الشهرة في غير حاجة إلى معونة وزير أو عظيم ، إذ أن مجرد ظهورك في اجتماعات الطبقة العالية ، كفيل بأن يرفع لك ذكرك ! لن أبتعد عنك لحظة وسأعيش في كنفك وظلك ، وأتذوق حلاوة مجدك في اخلاص لا تشوبه شائبة الغرض . لا

تخشى شيئاً : فلن أعذبك ولم يعد للغيرة سلطان علي ، فقد شفاني من دائها كرمك . وعندما يتحقق كل هذا ، ستجد أن التضحية التي أقبلت عليها في سبيلي ، لم تعطل ازدهار مستقبلك ، ولكنها فقط أجلت هذا الازدهار إلى أجل قريب . وقد يتضح أن الاستجمام في « الباجورو » لم يكن عديم الفائدة بالنسبة لعبقريتك .

سكتت قليلاً . ثم قالت في دلال ساحر :

ـــ قل لي بربك ، ألا تفضل أن تظفر بالنجاح معي .

على أن تظفر به مع الوزير ؟ سأكون دليلك في الاجتماعات والحفلات ، وأستخدم كل ما تملك المرأة من حذق وحيلة في تدبير ما يهيء أسباب نصرك ، ويكسبك صلات طيبة ويجذب إليك شخصيات قيمة . وسيسعدني عندئذ أن أكون قد ساهمت بنصيب ضئيل في بناء شهرتك ومجدك . ألا ترى أن هذا ، مستقبل مثالي لي ولك لم نكن نتوقعه ؟ ولكن ماذا بك ؟ يخيل إليّ أنك لا تقاسمني ما أنا فيه من نشوة ؟ ألا تبعث في نفسك هذه الصورة التي رسمتها لك عن سعادتنا المستقبلة ، ابتهاجاً أكثر مما أرى ؟ أتجد صعوبات وعقبات تحول دون تحقيق ما أعرضه عليك ؟ أذكرها في غير تحرج !

وفي الحق ، كنت أخشى على مشروع الطلاق والزواج هذا عقبات جسام ، ولم يسعني إلا أن أذكر لها العقبة الأولى :

ـــ يا أعز الناس عليّ . أنت واسعة الثراء ، وأنا عار من المال . فماذا يقول أهل طبقتك عن مصلح أوتار يختطف ربة قصر من مواطنيه ؟

فقالت في عنف وحدة :

ـــ كنت أتوقع هذا التخاذل الجميل ! أي جنون هذا الذي يستولي على الرجال ، فيجعلهم يدخلون المال في مسائل لا تهم غير القلب . ولا يفصل فيها سواه ؟! أنت رقيق الحال ، ولكن ألا ترى أنك ستربح من المال في القريب العاجل ما يجعلك أوفر ثراء مني ؟ وفضلاً عن ذلك ماذا يهم ؟ لما منعتك بغيرتي من أن تتبع هؤلاء الذين وعدوك بالغنى في باريس ، لما حلت في كثير من الأحيان وفي هذا المكان نفسه ، بينك وبين أداء مهنتك بحناني الأثر ، واستحوذت عليك لنفسي خاصة هل تفكرت في المال الذي حرمتك ربحه ؟ أؤكد لك أني لم أفكر قط في هذا . اذن لماذا يزعجك ويجرح شعورك اليوم ، أمر التفاوت المالي بيننا ؟ ذلك خير ، إذا كانت ثروتي تتيح لي أن أمحو آثار الضرر الذي اصابك من حبي ، وأستعجل ساعة نصرك الحاسم ...

أستحلفك بكل عزيز عليك ألا تعود إلى مثل هذا الحديث ، وإلا اعتقدت أنك لا تحبني من أعماق قلبك .

فأجبت :

ــ ولكن سأعرض منزلتك عند الناس للسقوط . وهذا يؤلمني أشد الألم .

وما أن فرغت من كلمتي ، حتى قالت في حزم وشدة ، وقد اتخذ صوتها الذي ألف الرقة البالغة والعذوبة الخلابة ، ولاءم نفسه مع لطف الحديث في هذه البلاد وبراءته الناعمة ، لهجة الكرامة الثائرة فجعلتها لبعض لحظات شخصاً آخر غير صاحبتي التي أعرفها حق المعرفة :

تعرض منزلتي للسقوط ؟ ربما أكون قد سقطت حقاً يوم أن أصبحت زوجاً لرجل غير كفء ، تركني فريسة الوحدة أبكي خزياً في بيته الموحش وجعلني هدفاً لسخرية من تصفهم بالطبقة العليا ! ولكن عندما أكون زوج فنان عظيم ، زوجك أنت ، أتعتقد إذن أني لا أعد نفسي أوفر سعادة وأكثر توفيقاً مما كنت في ارتباطي برجل ماجن مستهتر لا يحفل بشعوري ولا يأبه لشأني ؟ إن زواجي الأول هو الذي كان خطأ كبيراً ، أما زواجي منك فسيكون الزواج الجميل الموفق . لأنه زواج الحب .

قد تقول يا سيدي إنه كان من الواجب عليّ أن أقاوم في عزم وقوة ، وأرغم صاحبتي على العدول عن هذا السراب الذي ملك عليها نفسها . وفي الحق أني لم أحسن الدفاع ولم أستمر فيه إلا وقتاً قصيراً ، واستسلمت في سهولة للأمل الذي تملك « جولي » وألهب مشاعرها ، واني كما قلت لك ، لا أملك شيئاً من صفات بطل من أبطال القصص ، ولم يكن من شأن ضروب التضحية التي أقدمت عليها في المرحلة التي حدثتك عنها وفي المراحل التي تلتها ، أن تكسبني تلك الصفات . وكل ما في الأمر أني كنت أختار حبي إذا خيرتني الظروف بين هذا الحب وبين أي شيء آخر في الحياة . وقد رأيت أن حبي في هذه المرة يربح من الزواج المقترح ربحاً جزيلاً ، ومن أجل هذا أخمد في نفسي ثورة التعقل والتبصر والمخاوف ، وقضى على كل أثر من آثارها قضاء تاماً .

ولست أخفي عليك أيضاً أن الصلة الوثيقة التي كنت أعيش وصاحبتي في ظلها الوارف منذ عامين ، جعلت ابن القرية الخشن الذي كنته ، يتغير ويستحيل ، إن لم يكن إلى رجل من طبقة « جولي » ، فعلى الأقل إلى فنان رقيق مهذب . لم تكن لي أساليب العظاميين من غير شك ، ولكن الفن وجولي صقلاني

إلى درجة جعلتني في كثير من المرات أحكم بحق على بعض الناس من ذوي المولد الرفيع بأنهم في أساليبهم لا يفضلون الفلاحين الخشنين . وأرجو على كل حال ألا تقارن « سان فلوران » الذي عاش يا سيدي في ذلك الزمن الذي أحدثك عنه ، بسان فلوران الجالس أمامك الآن .

○○○

ورويداً ، ألفتُ الفكرة الجديدة التي تتلخص في أن حياتنا ستتغير ، وأن « جولي » ستكون لي ، وأنني سأستطيع آخر الأمر أن أكون فناناً ،

لا يسبب لها ألماً ولا هماً . وليس هذا فحسب ، وإنما يكسبها شرفاً ومجداً .. ولم نلبث أن أعددنا كثيراً من المشروعات والخطط .

ورتبتْ صاحبتي مستقبلنا مقدماً ، وفقاً لمشيئتها وهواها . ولم تكن تعرف باريس إلا من إقامتها عاماً في دير بكيس Picpus ، أي أن للمدينة في نظرها إغراء الجدة نفسه الذي كان يستهويني . ومع ذلك فإن الانطباعات التي رسخت في ذهنها

وهي فتاة صغيرة ، ظلت قائمة فيه كالسحر الحلال : تعود إلى رؤية باريس معي ؟ أي حلم رائع آخاذ !

قالت لي ذات مرة :

سأستقبل هناك قليلاً من الناس ، وفقط هؤلاء الذين يقدرونك وينفعونك ، وسنعرف كيف ندرأ عن سعادتنا الخاصة إلحاح الثقلاء والمتشوفين ، ونخلق لنعيمنا وحدة وسط هذه الجماعات التي ستحيط بك وتصفق لك . ما أبدع هذا ! أليس كذلك ؟ أن نجد في عشنا هدوء « الباجورو » دون وحشته وحزنه ، وأن نعيش جميع لحظات الفراغ التي تسمح لك بها جماعات المعجبين بك ، لشخصينا ليس غير ، ويستمتع بها حبنا كاملة خالصة وسيكون من حقي وفي وسعي، عندما يصفق لك في الحفلات الكبرى ، أن أتذوق نصيبي من حلاوة انتصاراتك : سيهنئني الناس ، أنا أيضاً ، بمجدك لأنه مجدي ، بما أني سأكون زوجك أمامهم جميعاً .

الفصل العاشر

نجحت « مدام دسكاربي » في أن تجعلني أقاسمها أحلامها ، فشرعنا نتروى معاً في الوسائل العملية التي تؤدي إلى تحقيقها .

ويؤكد لي الناس أن الطلاق في هذه الأيام سهل لا يتطلب كبير عناء وقد عرفت في الواقع ، حتى في قريتنا المغمورة ، بعض أزواج حصلوا على الطلاق دون أن يكلفهم مشقة أو جهداً كبيراً .

ولكن الأمر لم يكن على هذا النحو غداة إنفاذ القانون ، لأن القضاة جميعاً على وجه التقريب كانوا كارهين لهذا التشريع الجديد ، ساخطين عليه أشد السخط ، وكان الموثقون لا يعرفون من جوهره إلا النزر اليسير ، أما المحامون فكانوا يجدون فيه خروجاً على القانون الروماني وقانون الأمبراطورية الأولى ، ولكنهم كانوا في حقيقة الأمر ، لا يدركون منه أكثر مما يدرك الموثقون .

ومن حسن الطالع أن كبير الكتاب في أحد مكاتب الموثقين المحترمين بنراك Nerac . كان زميلاً لي في الدراسة الابتدائية . ويدعى بيريلو pèrilhou : وهو رجل وفي والوفاء كثير في جسكونيا . ولكنه فضلاً عن ذلك رجل متزن أمين قلّ أن يعثر بمثله في الاتزان والأمانة .

قابلت هذا الزميل القديم ، وبحت له بأني أفكر في الزواج من امرأة مازالت مرتبطة برجل آخر ، وأنها وافقت على الزواج مني إذا استطاعت أن تحصل على طلاقها منه . ومن غير شك لم أذكر له اسم « مدام دسكاربي » ولو جال بخاطره هذا الاسم ، لكان من المرجح أن يرفضه عقله في أول الأمر ، إذ يبدو له الحادث مغامرة لا تحتمل نصيباً من الصدق . ولكنه بطبيعة الحال والظروف لم يلبث أن عرف الحقيقة . وبعد أن عكف على مواد القانون الجديد يدرسها في أناة وعمق . عرض عليّ نتيجة بحثه ودرسه .

وكم كانت دهشتي عظيمة ، حينما علمت منه أن تحقيق الطلاق ليس سهلاً كما كنت أعتقد ، وعلى الأخص كما كانت تعتقد « جولي » . بالرغم من فضائح « مسيو دسكاربي » وسيره المعوج !

فإذا لم يوافق هذا الزوج السيء على الطلاق ، فإن أيسر السبل المؤدية إلى الغاية المنشودة تدبير فخ يقع فيه متلبساً بجرمه . وليس هذا بالأمر المستحيل مع رجل مثله لا يكلف نفسه عناء الاحتشام واتخاذ الحيطة في استهتاره ، ولكن هذه الوسيلة كانت تبعث فينا شعور النفور من ناحية ، وتحتم على « جولي » نفسها بأن تنهض بإبلاغ الأمر إلى السلطة العامة ، وأن تذهب مع رجال هذه السلطة إلى حيث يباغت الزوج من ناحية أخرى . وكانت صاحبتي الضعيفة أعجز ما تكون عن القيام بهذا العمل المرهق . ويقيني أنها لو أقدمت عليه ، لفارقها في مكان الحادث النفس الباقي الذي كان يتردد في صدرها ويمدها بدفء الحياة .

وكان من أثر الصعاب التي برزت على غير انتظار ، بعد وثبة الأمل الملتهب الذي أنعشها وكأنه بعثها من جديد ، أن عادت كما كانت ، فريسة لأسوأ حال من الضيق واضطراب الأعصاب .

وهي من يوم أن داعبها الأمل في إمكان النزوح معي عن « الباجورو » أصبحت ترى في هذا القصر سجناً بشعاً رهيباً ، تختنق بين جدرانه ، حقيقة لا مجازاً ، إذ كانت تعتريها نوبات من الضيق قاسية مروعة تفقدها الوعي وتدنيها من الموت ، فتظل ساعات طوال جامدة بغير نبض ولا نفَس .

فإذا عادت إلى رشدها ، استجمعت قواها لتتحدث إليّ فقط في موضوع الطلاق الذي تتمناه في لهفة عجيبة . وكنا قد عدلنا سريعاً عن إنفاذ الخطة الأولى التي تتلخص في مباغتة « مسيو دسكاربي » . فشرعتْ خطة جديدة أشد جراءة من الأولى وأقرب منها إلى الخيال الشعري ، تختمر قليلاً قليلاً في ذهن صاحبتي ، ثم لم تلبث أن سيطرت عليه واستأثرت به . ولست في حاجة إلى القول أن هذه الخطة أخضعتني أنا نفسي لسلطانها ، لأن ما تتمناه « جولي » أصبح منذ ذلك الوقت أمنيتي الخاصة .

○○○

كانت خطة « مدام دسكاربي » ترمي في جملتها إلى الهرب من قصر « الباجورو » .

أرجو أن تفهمني جيداً يا سيدي أنها لم تقصد بالهرب معي إلى أن تحيا في مختلف البيئات حياة مماثلة للتي آثرها في سالف الزمن ، كما يقال ، موسيقار مشهور مع سيدة ليست أقل شهرة منه ، كانت متزوجة من أحد أصحاب القصور في « بيزين » ... فلم يكن في طبعي ما يجعلني شبيهاً بشخص

كشوبان ، وكانت صاحبتي أبعد ما تكون عن أن تشبه في مزاجها امرأة كمدام دوديفان Dudevant .

اقترحت « جولي » أن تغادر القصر ليلاً ، وهي على يقين من أنها لن تصادف صعوبة في إنفاذ خطتها ، لأن زوجها لا يبيت فيه إلا لماماً .

ثم ينتظرها حوذي أمين في جوف غابة الصنوبر الشاسعة التي كثيراً ما يقطع السائر فيها الفراسخ الطوال في وضح النهار دون أن يقابل كائناً حياً ، ويقودها إلى محطة «أنديران Andiran» الصغيرة المغمورة وسط أشجار السرو الكثيفة . ومن هناك تستقل القطار إلى باريس في أمن وسلام ، فتقيم في ديرها القديم بيكبيس Bicpus إلى أن يفصل في القضية التي لا بد أن يقيمها « مسيو دسكاربي » .

عرضت هذه الخطة على صديقي « بيريلو » فأقرها ثم أعد كل شيء في دقة وحذر حتى لا يترك لمحض المصادفة أي جزء من هذا المشروع الذي لا ينبيء مطلقاً عن أية صعوبة ذات خطر تعوق إنفاذه .

اختار « بيريلو » الحوذي من ناحية « آجن Agen » واتُّفق على أن يقوده صديقي نفسه إلى مكان قريب من القصر

للانتظار في الوقت المعين دون أن يعرف شيئاً عن الشخص الذي ينتظره ليذهب به إلى المحطة . وكتبت « جولي » خطاباً إلى الأخت كلاريس في دير بيكبيس لتهيء لها فيه مكاناً للاقامة المؤقتة .

وبالرغم من الحمى التي لم تكف عن إيذاء صاحبتي ، ومن النوبات العنيفة التي كانت تعتريها في فترات متقاربة ، فقد ظلت بادية الفرح والنشاط .

وكنت كلما أعلنت اليها ما يساورني من القلق ، وحاولت أن أدخل على نفسها الهدوء ، قالت :

اطمئن ، فصحتي لا تدعو الى الخوف أو القلق ... إن العيش في هذا السجن هو الذي يعذبني وينتزع مني الحياة قطرة قطرة ... ما أن أصبح طليقة حتى أتنفس وأحيا ...

كانت تتمنى هذا التحرر ، ومع ذلك فإن حماسة رغبتها كانت تمتزج بالعبرات ، لأن الذهاب إلى باريس هرباً من الزوج وقصره ، معناه بالنسبة لنا ، الانفصال لمدة طويلة .

ولم يكن من حسن الظن ، كما لا يخفى عليك ، أن أذهب إلى باريس مع صاحبتي ، بل على العكس من ذلك ، كان من الواجب علي أن أبقى في قريتي ، وأواصل علانية حياتي

المتواضعة التي تلائم مصلح الأوتار ، حتى لا يتسنى لكائن من كان أن يتخذ من صلتي بمدام دسكاربي واشتراكي معها في تدبير الأمر ، حجة لمناوأتها أثناء سير القضية .

○○○

لن أحاول أن أصف لك الأيام الأخيرة التي سبقت المساء المعين للهرب .

تصور يا سيدي أشد ألوان الفرح ممتزجاً بأفظع ضروب الغم والأسى !

تصور مخلوقين يعبد كل منهما الآخر ، وهما على وشك انفصال ينتج ارتباطاً وثيقاً مدى الحياة . تصور على الأخص ضريراً مثلي يمتلك في شخص « جولي » صديقة نقية كأنقى الفتيات . ولكنها ملتهبة العواطف كأشد المشغوفات تأججاً والتهاباً وأنت يا من تصنف كتباً عن الحب ، ابحث عن كلمات تُصور بها سعادتنا الأليمة ...

○○○

جاء اليوم المحدد للرحيل بعد طول الانتظار ، وكان يوماً مشمساً من أيام شهر فبراير الأخيرة ، التي تتلفع في بلادنا هذه بجميع مظاهر الصيف في أغلب الأحيان ، ولكنها سرعان ما تتغير وتختلف عنه عندما تجنح الشمس إلى المغيب . وفي مثل ذلك اليوم ، يملأ الجو عطر عذب رطيب ، كالذي ينبعث من جوف الغابة ، يكون من شذى جميع أنواع الأزهار والرياحين التي تنعش النفس وتهدىء الأعصاب .

لم أذهب إلى القصر في ذلك اليوم . وقضت مدام دسكاربي الصباح كله وجزءاً من الظهيرة في راحة مطلقة . حتى تهيىء قواها للتجربة الكبرى .

وفي نحو الساعة الرابعة مساء ، وقد أخذ ضوء النهار يتضاءل ويتوارى رويداً خلف الأشجار الباسقة ، أدعت أنها تشعر بضيق شديد ، كالذي ينتابها فجاءة في كثير من الأوقات ، حتى تخرج متحاملة على قهرمانتها .

« مارسلين » وتبتعد عن القصر مئات من الأمتار .

وبعد أن اجتازت وقهرمانتها منطقة البحيرات الصغيرة ، بلغت مكاناً فسيحاً تظلله أشجار متعانقة الأغصان وبه بعض مقاعد ريفية كنا نلجأ إليها معاً في كثير من الأيام ، وما أن

جلست على أحد هذه المقاعد ، حتى طلبت إلى قهرمانتها أن تعود إلى القصر ، زاعمة أنها تشعر برغبة ملحة في الخلوة إلى نفسها .

ولم يكن في هذا ما يريب ، لأن المرض جعل « جولي » غريبة الأطوار عصبية المزاج ، لا تستطيب ولا تحتمل صحبة إنسان سواي .

انصرفت القهرمانة على أن ترجع إلى سيدتها بعد نصف ساعة كما أمرتها ، ليعودا معاً إلى القصر .

وبقيت « جولي » لا تريم مكانها بعض الوقت ، لتطمئن إلى أن « مارسلين » قد بلغت القصر ... ثم شرعت تغني بصوت خافت لحناً قصيراً وضعته خصيصاً لها وكانت تحبه وتعجب به غاية الإعجاب .

وكنت مختبئاً في مكان قريب منها ، أنتظر هذا الغناء المتفق عليه ، فلما بلغ سمعي بسهولة في سكون الغابة العميق ، أقبلت عليه في سرعة وتلهف ، إذ كنت قد عرفت مستدقات المكان صغيرها وكبيرها معرفة وثوق وخبرة ، وأخذت أغمر يديها بفيض من القبل ، وأسكب عليها سيلاً من الحنان المتدفق بوساطة الأصابع المرتعشة التي تقوم عند الضرير مقام النظرة المعبرة .

فلما هدأ بعض ما بنا ، قالت صاحبتي :

ــ فلنسرع ... ها هو ذا الليل يرخي سدوله ويجثم في مجثمه .. ستعود « مارسلين » إلى هنا بعد قليل ... هلم نسرع ...

ثم نهضت عن مقعدها ، وسرنا بخطى سريعة نحو المكان المعين الذي ينتظرنا فيه الحوذي وبيريلو . ولم تحمل « جولي » معها شيئاً من المتاع ، حتى لا تسترعي الانتباه ، ولكنها كانت قبل ذلك بأيام ، قد أعطتني حقيبة صغيرة تشتمل على بعض الملابس الضرورية وأدوات التطرية ، فوضعتُها في ذلك اليوم داخل المركبة حالما وصلت إلى الغابة .

وكان المكان الذي تنتظر فيه المركبة ، يقع عند تقاطع سبل ثلاث من سبل الغابة ، ويطلق عليه أهل بلادنا اسم « البورتانيه Lespourtanets » وكلما اقتربنا منه ، أسرعت صاحبتي الخطو ويدي في يدها ، حتى كان من الصعب عليّ أن أجاريها في هذه السرعة وأسير حذوتها . ولم ألبث أن سمعتها تلهث وتضطرب في تنفسها ، فرجوت منها أن تتمهل وتستأني ، وأن تهدىء من روعها حرصاً على راحتها ، ولكنها لم تقبل رجائي . وقالت في صوت راعش وهي تتنهد :

ـــ إنهم يتبعونني ... إني على يقين من أنهم يجدون في أثري ... وبعد قليل لمحتْ على البعد مصابيح المركبة تضيء في ظلام البورتانيه فقالت مغمغمة :

ـــ الحمد لله ... إن صاحبك والحوذي في انتظارنا هناك ... كنت أخشى ...

لم تقو على إتمام قولها لأن هزة الفرح الشديد الذي تملكها بعد الغم والوجل اللذين استوليا عليها في الدقائق السابقة حطمت أعصابها ونالت من جلدها فأغمي عليها فجأة وكادت تسقط على الأرض ، ولكني استطعت في اللحظة الأخيرة أن أتلقاها بين ذراعي .

ماذا أصنع ؟ ليس في مقدوري أن أواصل السير مثلها على هدى النور المنبعث من مصابيح المركبة فلم أجد وسيلة للخروج من هذا المأزق إلا أن أنادي بأعلى صوتي :

ـــ بيريلو ! إليّ يا بيريلو !

وكانت المسافة من حسن الحظ قصيرة والسكون عميقاً ، فسمع صديقي النداء وعرف صوتي . وبعد قليل سمعت وقع أقدام على العشب الجاف وصوتاً ينادي .

ـــ آو ! هنري

هتفت باسمه مرة أخرى لأدله على مكاني ، فلما دنا مني قلت له في كلمات سريعة موجزة أن « مدام دسكاربي » قد فقدت الوعي منذ لحظات ، ثم حملنا معاً في سهولة ويسر جسمها الخفيف الجامد ، وسرنا به حتى بلغنا البورتانيه .

فتحنا باب المركبة ، وهي ريفية من طراز عتيق ، ووضعنا صاحبتي على مقعدها الداخلي المستطيل ، ثم شرعت أبذل جهدي في ردها إلى رشدها أمام الحوذي وبيريلو ، وقد تولاهما الذعر والوجوم ، بالوسائل التي كانت تنجح معي عادة وهي أن أدلك يديها ومعدتها ، وأضع على مقربة من أنفها زجاجة الأملاح التي لم تفارقها قط لتستنشق رائحتها المنبهة . ثم أغمغم في أذنها بكلمات الحب والحنان ...

وبعد قليل ، شعرت بأنها فتحت عينيها فوقع بصرها على هذا المنظر الغريب : ضوء المصابيح الضعيف ينير بقعة مستديرة من الأرض تحيط بها أشجار البورتانيه ورجلين مجهولين واجمين مشدوهين ، وأنا محني عليها في هذا السكون الرهيب .

أفزعها هذا المنظر ، فاعتدلت في انتفاضة الرجل وطوقتني بذراعيها وهي تقول :

ـــ هنري ! هنري ! لا أُريد أن أفارقك ... خذني

معك ... اذهب بي ... ثم خارت قواها في الحال ، وأصابتها مرة أخرى إغماءة شديدة لا تختلف كثيراً عن الموت .

أمام هذه الحالة يا سيدي ، لم أعد أفكر في الذهاب إلى أية محطة بهذا المخلوق التعس الذي أمسى كالجثة الهامدة ... ولم يكن بد من العدول ، ولو بصفة مؤقتة عن محاولة الفرار والعودة بجولي إلى القصر فاقدة الحس والحركة .

وهذا ما فعلناه أنا وبيريلو .

أخذ صديقي من المركبة أحد المصابيح لينير لنا الطريق ، وسرنا صامتين حاملين صاحبتي العزيزة ، حتى قطعنا المسافة الطويلة ــ أكثر من فرسخين ــ التي بين البروتانيه وحديقة القصر . فلما بلغناها ، صرفت صاحبي مخافة أن يصادفنا أحد من الخدم ، وكان من السهل علي أن أمشي خلال الطرق المألوفة لديّ وأحمل بمفردي جسم أعز الناس عليّ ... وما قيمة النور إن وجد أو غاب ، عند أعين قضي عليها أن تنغمس في ظلام ليل سرمدي ؟!

كيف فسرتُ لمن في القصر هذه العودة المتأخرة ، وهذه الإغماءة التي أصابت « جولي » ، وكيف بررت على الأخص حضوري في مثل تلك الساعة ؟ ... في الحق أني لا أذكر من

هذا شيئاً ألبتة ولا أعتقد أني أنفقت وقتاً طويلاً في الايضاح الذي أملته عليَّ الظروف ودقة الموقف .

وكان الزوج متغيباً عن القصر كعادته ، ولم يكن الوقت متأخراً إلى حد كبير ، فقد كان الناقوس الصغير يدق عند وصولي ليدعو الخدم إلى الاجتماع وتناول طعام العشاء . واستطعت بعد جهد وبمعونة « مرسلين » أن أنبه في جسم صاحبتي المتهدم الساكن شعلة من الحياة . وفي نحو الساعة الحادية عشرة مساء ، لم تعد حالتها ، التي كنت أعرفها بالتجربة حق المعرفة ، تنذر بخطر فاجع عاجل فانصرفت ولكني لم أغادر « الباجورو » بل قضيت الليل في الحديقة شارد الفكر مقسم اللب ، بين السير المضطرب حيناً والجلوس الأليم حيناً آخر .

وأترك لك ان تتصور كيف كانت تأملاتي في تلك الليلة : عتبة القصر الذي أستمد منه الحياة محرم عليّ اجتيازها ، وجولي تعاني الألم المبرح ولا يسمح لي بالبقاء إلى جانبها ، ممسكاً بيدها وجاثياً عند حافة سريرها .

الفصل الحادي عشر

حينئذ فقط ، يمكن أن أقول أني لمست يا سيدي حافة العدم في كل أمل أنساني ...

كانت رغبتانا وارادتانا تتطلعان في لهفة شديدة ، إلى الحياة وما فيها من مسرات ومباهج ، وقد خُيل إلينا أننا على وشك بلوغ هذا الغرض آخر الأمر عن جدارة واستحقاق ، بعد أن جمعنا له كل ما نملك من قوة وجلد ... وكان أملنا من التأجج والغزارة ، بحيث جعل حلمنا يحيا مقدماً حياته التي كنا نتمناها في شغف متقد .

وإنا لفي ذلك ، وإذا بنا نسقط دفعة واحدة من قمة هذا الحلم وهذا الأمل ، فانتقمت الحقيقة البشعة بهذا لنفسها انتقاماً مروعاً !

وبفعل تناقض فاجع ، نزلتْ صور السعادة التي أعجبنا

بها غاية الإعجاب ، عن مكانها فجأة لألوان المخاوف وضروب الهلع التي ينشرها شبح الموت المخوف !

هل لاحظت يا سيدي هذه الظاهرة ؟ في حياة كل إنسان على وجه التقريب ؟

ـــ في اعتقادي ـــ لحظة يدنو فيها من الهناءة المرجوة دنواً كبيراً .. ويحس إحساساً قوياً جلياً بأنها على قيد شعرة منه ... بأنها أصبحت قريبة المنال ، بل أصبح الحصول عليها حقيقة لا شك فيها ... فيتذوق بادىء الرأي بفكره نشوة هذا التملك ، ثم يمد يده فرحاً مطمئناً ... ولكن هذه الحركة نفسها هي التي تهدم البناء الوهمي وتجعله أثراً بعد عين !

لقد كتب في لوح القدر ألا تكون « جولي » زوجي ، وإن علينا أن نستمتع فقط بهذه المسرات البالغة الأليمة الناتجة عما بيننا من مصافاة الإخاء المستعرة ، التي وضعنا فيها معاً : مزيجاً من بؤسي العضوي وفني ، وأحزانها وكنوز حنانها الجارف المتأجج ...

تطلعنا بالفكر إلى اتحاد أكثر اكتمالاً ، وتمنيناه وتذوقنا أفاويقه ونحن نشتهيه ونرنو إليه : وهذا هو كل ما راق للقدر أن يسمح لنا به !

لم يتحقق زواجنا الأرضي . ونحن اليوم أيضاً ، خطيبان ينتظران ، كل على عدوة متقابلة من الأبدية ...

ولكني على الأقل ، أهنىء نفسي إذ أطعت « جولي » في أعز رغبة لديها . وأردت أنا نفسي هذا الزواج الذي لم يتم ، وأعددت له العدة وظللت أتألفه بأمانيّ الحارة ودعواتي الخالصة ، إلى أن حلت اللحظة التي حرم علينا فيها مجرد الحلم به .

لم أخاصم إذن أمنية صاحبتي قط ، فلا لوم عليّ من هذه الناحية : القضاء وحده هو الذي عرف كيف يفرق بيننا .

اعتقد أنك لن تسألني يا سيدي أن أقص عليك بالتفصيل ، ما نشأ عن مرض صاحبتي القاتل من آلام وأحزان ، لأن مثل هذا القصص لا يهم إلا الذي يرويه : وفي أغلب الأحيان ، يوقظه ذهني لنفسي خاصة ، حتى إني لا أشعر بالحاجة إلى إعادته على مسامع شخص آخر . ويكفي أن تعلم بأن الداء الذي ظل أيضاً كامناً وقتاً طويلاً ، تفاقم واستفحل إلى حد مزعج غداة اليوم الذي حاولنا فيه الفرار .

واستدعي طبيب من « نيراك » لفحص « جولي » ، فعرف دون كبير عناء أن عودة المرض إليها يرجع إلى أنها قضت وقتاً طويلاً في اضطراب عصبي شديد ، أعقبه انفعال مباغت عنيف .

وكانت « جولي » جالسة على مقعد مستطيل ، سريعة النفَس بادية الوهن ، إذ لم تعد تستطيع الرقاد على ظهرها أو على أحد جنبيها . فلما فرغ الطبيب من أداء مهمته ، لم يجد أمامه سواي ، مع استثناء الخدم ، ليدلي إلي برأيه في المرض وما يستوجبه من علاج . وأغلب الظن أنه خالني كاتم سر أو كبير خدام من ذوي العاهات تستبقيه ربة القصر إلى جوارها فضلاً منها وإحساناً ... لم يخف عليّ شيئاً ، بل شرح لي حالة « مدام دسكاربي » في حقيقتها الرهيبة المرعبة ، وما أن سمعت منه كلمة « الموت » ، حتى وقعت على الأرض كتلة واحدة . ولا يخالجني شك في أن الدهشة الشديدة استولت عليه حين رأى أثر الصدمة فيمن ظنه تابعاً عادياً من أتباع المريضة .

ولما عاد إليّ الوعي ، استحوذت عليّ فكرة واحدة : ألا أفارق صديقتي المسكينة لحظة من اللحظات ، وقلت لنفسي : يجب أن يستخدموا القوة إذا أرادوا أن يقتلعوني اقتلاعاً من جانب فراشها . ولكن رغبتي هذه ، لم يتطلب تحقيقها أية بطولة ، أو حتى أية مقاومة بسيطة .

فقد كان « مسيو دسكاربي » هائماً حينذاك بحب مغنية (أوبريت) تعمل في فرقة متنقلة ، تجول في الجزء الجنوبي الغربي

من البلاد . وبعد أن فرغت من عرض فنها في أنحاء مقاطعتنا ، رحلت في الوقت الذي أحدثك عنه إلى مقاطعة (الجيروند) لإمتاع أهلها بالغناء والتمثيل . وإذن لم يكن أمامي أحد يرفض بقائي إلى جانب « جولي » والإقامة في قصر « الباجورو » : وفضلاً عن ذلك ، فإن « مارسلين » تمنت هذه الإقامة حتى لا تقع تبعات العناية بسيدتها على كاهلها وحدها . ثم إن « مدام دسكاربي » نفسها أصدرت أمرها بأن أقيم في القصر ، وبأن يُهيأ ما ينبغي لهذه الإقامة .

وأسفاه يا سيدي إن ألسنة الشر نفسها لم تصل مع استخدام سمومها جميعاً ، إلى أن تدنس المصافاة السامية التي بين امرأة تحتضر وفنان ضرير !

وكان بعض الأقرباء يزورون « مدام دسكاربي » من حين إلى آخر ، ومن بينهم أخت زوجها التي سبق أن عزفت عندها في حفلة عامة لآخر مرة . ولقد ضايقهم وأثار استياءهم من غير شك أن يجدوا هذا الأجنبي ، هذا الرجل الذي يكاد يعتبر خادماً بالنسبة إلى السيدة ، مقيماً في القصر ، وأن تعامله ربته كما تعامل أو تستقبل فرداً من أهلها ، وكان من نتيجة هذا الاستياء الملحوظ ، أن خلق الفراغ من حولنا في دؤوب وبطء لا يستلفتان

الشعور ، وأصبح مجيء الطبيب اليومي وحده ، يزعج خلواتنا الدائمة المشتهاة .

ولكن ماذا يهمنا ؟

من يوم أن أصيبت « جولي » بمرضها الفتاك ، لم نعد نعيش في الحياة ، وقد نشر الوثوق من فراق مقبل ، خطورة رهبته على أيامنا الأخيرة . وأؤكد لك يا سيدي أن الآراء والنقد وشائعات السوء لم تنل منا منالاً ، أو بتعبير أدق ، لم يعد للعالم من حولنا وجود حقاً ، كل عالمنا كان فينا نحن دون سوانا .

منذ ذلك الوقت ، أصبح أفضل ما يخفف عن صاحبتي وطأة بؤسها الباغي ، سماع الموسيقى الحنون الرفيعة التي تدخل على النفس الهدوء والطرب . وهذه الحالة جعلتني أشعر بالفرح المشوب بالألم لأن أكون طبيبها الذي يقدم إليها أنجح دواء . صور لنفسك يا سيدي تلك المصافاة التي تلفعت برداء المأساة في آصال الصيف والخريف ، والبيان يغني أعذب الألحان كما يغني الهواء خلال أشجار الصنوبر في أراضينا . كنت أشعر من فرط حرارتها الخفاقة بأن شعاعاً مائلاً من أشعة الشمس يرقص على شعري في موجات متتابعة ، وحينئذ كنت أستحضر في ذهني من طفولتي البعيدة ، عظمة الفصول التي طواها النسيان ،

وأتخيلها منتشرة حول أعز إنسان عليّ ، وهو جالس يستمتع براحة النفس من عزفي .

وكنا نترك النافذة مفتوحة في كل حين ليدخل منها أكثر ما يمكن من الهواء : وكنت أسمع في بعض الأحيان على بعد غير محدود وخلال الجو الرضيّ الصافي ، ناقوساً يدق في نغمة لها في أذني رنين الانقباض ، وليس لها صوت الحزن والأسى ، وهذه إشارة من السماء للأرواح تؤذن بالرحيل إلى عالم الخلد ، ولا تعني الموت مطلقاً . وفي اللحظة نفسها التي كنت أسمع فيها هذه الدقات ، كانت تستيقظ تحت أصابعي ، بالهام خفي غامض ، وبالرغم من إرادتي ، نغمات حزينة باكية مثل نغمات « الوداع » لشوبير .

وفضلاً عن ذلك . فإن سحر هذا الريف الجسكوني الذي يهدي إليّ عطره من جميع نواحيه ، كان يغرق هذه الأحزان في الحنان الوضاء ، وفي الهدوء الرائع الذي كنت أتصوره سابحاً على وجه الطبيعة برمتها ، فكانت النغمات العذبة تنثال على أصابع البيان ، فتنطلق الموسيقى صعداً إلى السماء . وتنطلق معها كما يخيل لي نفس « جولي » نحو هذه الآفاق المشرقة التي يتصورها الفن والحب ، ولا يصل إلى استكشافها العقل . وكنت

أكف عن العزف من حين إلى آخر لأستمع لنداءات تسيل رقة وحناناً ... لأصغي إلى صوت ضعيف خافت ، ولكنه طليق من أثقاله . يقول لي :

ـــ شكراً لك ! إني أحسن حالاً !

وعندئذ كنت أبكي . فأسمع الصوت يقول :

ـــ عد إلى العزف

فأطيع دون أن أنطق بكلمة .

كنت أعزف حتى يصيب التعب أصابعي ، وحينئذ كانت نفس « جولي » التي حررتها الألحان والنغمات ، تطفو وتعلو على ما بها من شجون وآلام . وعندما أكف عن العزف ، كان يخيم علينا سكوت شهي بالغ اللذة ، وتقوم بيننا ألوان من نجوى الحب المستبهمة التي لا تفتقر إلى الكلام . لم تكن عيني المظلمة ترى « جولي » وكانت هي تلجأ إلى الصمت ، فيشرع قلبانا وحدهما في تبادل أرق الأحاديث وألطفها . ولما كانت فكرة النهاية القريبة مسيطرة علينا ، فقد خيل إلينا أننا أصبحنا نتحاب في الأبدية . وثق يا سيدي بأن أي إنطباع أو تأثير ديني ، لا يمكن أن يسمو على جلال تلك اللحظات التي لا تنسى .

حدث ذات مرة أن انتابت « جولي » نوبة من نوبات

الضيق الخانق التي كثرت وتوالت في الأيام الأخيرة إلى درجة أفزعتني جد الفرع ، فدعتني إلى الدنو منها ، وسألتني أن أساعدها في النهوض لتخفف من ضيقها بالإنتقال إلى مكان آخر . ثم تحاملت على كتف الضرير وتقدمت في صعوبة وعسر حتى بلغت النافذة المطلة على أشجار الغابة الكثيفة ، وقالت :

ــ أتدرك مبلغ ما في هذا الهواء من الرقة والصفاء ؟ إنك لا تستطيع أن ترى أشعة الشمس الذهبية وهي تمرح بين أشجار الصنوبر ، ولكنك تشعر بها ، أليس كذلك ؟ الجو نقي باسم يهتز من حولنا سهلاً طليقاً ما أجمل هذه الساعة ! يجب أن نتوجه بأعظم الشكر إلى الله الذي يجمِّل نهاية حبنا بمثل هذه العذوبة الأخاذة !

وعلى حين بغتة ، انتقلتْ من هذه الرقة الرائعة وهذا الاكتئاب الوادع ، إلى ثورة عنيفة جامحة ، ثم ضغطت أصابعها على ذراعي في حركة عصبية شديدة ، وازدادت نوبة الضيق إستبداداً بها ، وكادت تقع على الأرض خائرة القوى ، فأسرعت بها إلى المقعد المستطيل دون أن أجعل هذا الجسم العزيز يصطدم بأية قطعة من الأثاث ، بالرغم من الظلمة التي تحيط بي .

وذات مرة أخرى ، ترامى إلى سمعنا خلال هذا القصر

العتيق الذي تتجاوب الاصداء فيه ، صهيل خيل يملأ الفناء ، وأصوات بعيدة كلها مرح وابتهاج ، ثم عرفت أن « مسيو دسكاربي » جاء مع بعض أصدقائه ليغير ملابسه على عجل ويذهب لطيته والله وحده يعلم إلى أي مكان كان يقصد ! وتنبهت « جولي » في انزعاج ، وأدركت مصدر الأصوات ومغزاها ، فهزت كتفيها آية الازدراء وعدم الاكتراث .

لم يغير « مسيو دسكاربي » شيئاً من مسلكه وطريقة حياته ، بل استمر يجول في أنحاء البلاد كما كان يفعل في الماضي ، ويمعن في عبثه ومجونه ، دون أن يبدي أقل اهتمام بصحة زوجه التي تفقد ماء الحياة على مهل ، ولم نكن نشعر بوجوده إلا من غدواته وروحاته المصحوبة بشتى أنواع الصخب والضجيج ، ولم يصعد إلى غرفة « جولي » للاستفسار عن صحتها مرة واحدة طيلة المدة التي قضيتها إلى جانبها . ولم يكن فعله هذا عن كراهية لزوجه ، ولكني أعتقد أنه كان يخشى فقط أن يدخل على نفسه الحزن أو يستحوذ عليه الملل ، إذا خصص بعض دقائق من وقته للمريضة .

ومع ذلك ، فقد باركت هذه الأثرة البغيضة ، لأنها أتاحت لي أن أتذوق المسرات الفاجعة لحب محكوم عليه بالموت .

ثم أن رؤية هذا الرجل كان من شأنها أن تسيء إلى صاحبتي جد الإساءة ، وتذكرها بالآلام الماضية التي ستؤدي إلى موتها ... أوه ! لشد ما كنت أتمنى أن يجنبها زوجها هذا العذاب ! وعلى ذلك كنا يا سيدي في معزل حقاً عن العالم ، وقد أضفى الفضاء الذي يحيط بالقصر ، جلال سكونه على عزلتنا فتم احتضار حبنا في الهدوء والسلام والوحدة والانطواء : لم يسرق منا أحد أيامنا الأخيرة وساعاتنا الأخيرة .

وكان المرض في هذه الاثناء يفعل فعله في الإنسان الذي أعبده ولو أطلع أكثر الناس امعاناً في هجو القول على صاحبتي وهي تسير نحو الموت لندموا أشد الندم على ما قدمت ألسنتهم الخبيثة ، ففي غضون شهور قلائل ، لم يبق من « جولي » التي كانت تتدفق حياة ونشاطاً إلا خيال ضارع ... وقد زال جمالها نفسه ، كما قيل ... ولم يستخف عليها ذلك ، بل كانت تتبع في كل ساعة على وجه التقريب ، التغير الأليم الذي يصيب جسمها الفتان .

وذات يوم قالت لي في عنفها المألوف :

ــ آه ! الآن أحمد الله الذي جفف أهدابك ... فمنعك من أن ترى ذبولي الحاضر !

سبحانك ربي ! إن الذبول الذي حدثتني عنه ، كان بالنسبة لي سراً خفياً كجمالها الآبق ، فقد حُرِّم عليّ أن أرى « جولي » الخلابة التي تفيض بشراً وسناء ، و « جولي » التي تدنو من الموت وقد براها السقم ولاعم بينها وبين القبر .

ولشد ما أوقر الحياء القدسي الذي عبر عنه قولها تمني المرأة المشتعل ، إذ ترغب رغبة جارفة في أن تظل جميلة من أجل الرجل الذي تحبه ، حتى وهي بين أحضان المنية ، ولكنها كانت مخطئة أشد الخطأ في إعتقادها أن منظر بؤسها يستطيع أن ينتقص من حبي لها ! ولو فُتحت عيناي بمعجزة حين نطقتْ بكلمات اليأس الدفين ، لعبدتُ في زهرة الشهداء هذه آيات الشغف الذي تعانيه ، بكل ما أملك من قوة وحرارة ! وإني لأعلن الساعة أيضاً في ثقة وإيمان ، أن الرجل الذي أحبها من أعماق ظلامه الأبدي ما كان له أن يضطرب في حبه عندما يبدو له ما سمته ذبولها ....

مكتبة
t.me/t_pdf

الفصل الثاني عشر

للألم الإنساني أعماق متتالية الدرجات ، تجهلها النفس جهلاً تاماً في ساعات الفرح والدعة والسلام . ولقد استيقنت أني بلغت غيابة بؤسي ، ولم أدر أن محنة جديدة كانت تتحفز لملاقاتي على حين غفلة مني ..

تصور يا سيدي أن غيرة « جولي » التي فترت ونامت منذ أمد طويل ، أفاقت وانتعشت في الوقت العصيب الذي أصفه لك . وتعرف أنت من غير شك أن أمراض القلب تكاد تعلن إلى المرضى بها تاريخ نهايتهم . ولما كانت صاحبتي من حدة الذكاء بحيث لا يفوتها أن تدرك دنو أجلها ، فقد شرعت تشغل بالها بما يكون من أمري بعد رحيلها وشعرتْ بأنها عادت تغار علي غيرة فظيعة ، تغار عليَّ حتى بعد الممات .

منذ ذلك الحين ، جال بفكري أكثر من مرة أن هذا العذاب العاطفي المبرح ، هو الاحتضار الحقيقي بالنسبة إليها ،

وكيف لا يكون كذلك ، وهي ترى النهاية التي لا حيلة في اتقائها ولا سبيل إلى تأجيلها ، تدنو منها وتقترب ، وتدرك أنها مرغمة وشيكاً على ترك أعز مخلوق عليها يعيش وسط مغريات تفسد الوفاء وتتشعب وتتكاثر بفعل الحياة ، وكيف لا يكون كذلك ، وهي تجد نفسها وجهاً لوجه مع مجهول الآخرة الرهيب ، ويتراءى لها أنها قد تموت مرة أخرى في نفس الرجل الذي أحبته وفي ذاكرته ؟! كثيراً من النساء ، منذ أن وُجد الحب في الدنيا ، عانين هذا العذاب قبل مفارقة الحياة ، ولكني مؤمن بأن أية واحدة منهن لم تلاق من شدته وعنفه مثل ما لاقته صديقتي المسكينة ، لأنها كانت غيرَى بطبعها وفطرتها بلا سبب أو مبرر تغار وهي في ذروة الابتهاج وأوج السعادة !

والله يعلم يا سيدي إني لم أدخر وسعاً أثناء هذا المرض في عمل كل ما يستطيعه بشر ، لأقنع « جولي » بأنها كانت وما زالت وستبقى إلى الأبد حياة قلبي الذي لا يهتف إلا باسمها ولا ينبض إلا بحبها !

كانت إقامتي المستديمة معها ، وحناني المستمر اليقظ ، يجتهدان في هدم أقل شك يساورها . ولو أنني كنت عاجزاً عن قراءة هذا الشك في نظراتها ، إلا أنني كنت أشعر به حالما ينشأ

في دخيلتها . وكان ركوعي المشبوب الذي أندفع إليه بكل ما فيّ من حس ونفس ، على مقربة من فراش عذابها ، يدل دلالة قاطعة على أن حبي لها يتبعها إلى القبر جارفاً عنيفاً .. ولكن شيئاً من ذلك لم يُجد في تهدئة مخاوفها ، فانفجر قلقها ذات يوم في شكايات مريرة مفعمة باليأس البالغ .

قالت :

ــ لن تربطك أي صلة بهذا البيت بعد مماتي ، وستذهب إلى باريس كما اقترح عليك ذلك الوزير ، وهناك ستنال كثيراً من أكاليل النصر الفني ، حتى أن سحب أحزانك ستنقشع قليلاً أمام رياح المجد ... هل تجد يومئذ يا ترى وقتاً تبكي فيه صديقتك ؟ سترى كم يغير النجاح في باريس حال النفس وخلجاتها ! ولكن هكذا يريد حظك أن تكون فناناً كبيراً : ينبغي حتماً أن تتبع مشيئته وتسير على حكمه ، وليس هذا بمستطاع إذا بقيت هنا إلى جانب المقبرة الجسكونية الصغيرة التي ستضم رفاتي !

ــ فأجبتها في وجد ولوعة :

ــ أقسم لك إني لن أغادر هذه البلاد أبداً !

ــ أبداً ؟

ــ ابداً

في ذلك اليوم ، استردت بعض الهدوء والسكينة ، ولكنهما لم يستمرا طويلاً ، ولم تلبث أن استحوذ عليها قلق آخر :

ـــ ستعود إلى العزف في البيوت والقصور بعد رحيلي وسيصفق لك الأفراد والجماعات وقد تحتل امرأة أخرى المكانة نفسها التي كانت لي عندك . أوه ! لشدّ ما تروعني هذه الفكرة . إنها أفظع ضروب العذاب التي أعانيها . سأصبح نسياً منسياً ! إني أقبل هذا الوضع في إذعان ورضوخ ، بما أن الحياة تتطلب أن ينسى الإنسان الموتى ، ولكن إذا استوجب الأمر أن يكون لي بديل فالتمس لي العذر إذا كنت أفضل في هذه الحالة ألا أكون قد عرفتك قط !

أقسمت لها جهد أيماني ، وعيني تذرف الدمع السخين ، أن وفائي لها من القوة والثبات بحيث لا تقوى الحياة على أن تغرر به وأكدت لها ما وسعني التأكيد ، حقيقة ناصعة خالصة ، تنحصر في أني لن أستطيع أبداً أن أكون مع امرأة أخرى كما كنت معها هي ، حتى ولو أردت ذلك ، وأن ظروف مقابلتنا وعلاقتنا كانت إحدى هذه المعجزات التي لا تجددها القوة الإلهية . كانت أعجوبة فريدة لا تعرف التكرار ، بما أنه لن يكون لي عوْض إلا « جولي دسكاربي » واحدة ليس غير !

لم تشأ أن تقتنع ... نعم يا سيدي ، على الرغم من أيماني وتأوهاتي ، شعرت بأنها متشككة إلى أقسى حد وأشده إيلاماً ! .

وذات مساء ، أثناء إحدى هذه الفترات التي يهدأ فيها الألم ، والتي تعلن مع شديد الأسف دنو الخطب المنتظر ، كسطح نهر يبدو ساكناً جامداً أو يكاد ، قبل مساقط المياه بقليل ، طلبت مني « جولي » أن أخرج بها إلى الشرفة وهي جالسة على مقعدها المستطيل ... وكانت أشجار الصنوبر صامتة خاشعة في تلك الساعة ، وقد التف المكان بهدوء شامل هبط عليه من السماء ... إنك تعرف يا سيدي دون ريب مثل هذه الحالة التي يبلغ الجو فيها أقصى درجة من الرقة والصفاء ، حتى لتكاد عذوبته الشديدة الفذة تكون ألماً لأعصابنا : في مثل تلك اللحظات تكتسب النفس نوعاً من السمو ثم تسبح وتحلق وقد تحررت من ربقة الجسد ، فيحس الإنسان بأنه معلق فوق الأشياء وفوق شخصه هو أيضاً ، فيما يشبه الحلم ، ويشعر في آن واحد بحنان وقلق ، يتخذان على التناوب أشكالاً مختلفة وألواناً متباينة ...

تبادلنا الحديث في عبارات موجزة ، كانت تتخللها فترات طويلة من الصمت الذي يثقل على الصدر .

قالت هي :

ــ أوه ! في مساء مثل هذا المساء الذي نشهده اليوم ، شعرت أكمل شعور بحزن الحياة والموت على السواء . يخيل إليَّ يا صديقي أني أصبحت نائية عن هذا العالم .

ثم تنهدت وقالت :

ــ سيكون هذا في القريب العاجل حقيقة لا خيالاً !

فأجبت في قوة :

ــ كلا ، كلا أنت في تحسن مضطرد ، ويقيني أنك ستبلين من مرضك . قلت هذا مدفوعاً بعاملين : أما الأول فرغبتي في إدخال الطمأنينة عليها . وأما الآخر ، وهو الأقوى ، فثورة غريزية لهذا الحكم الذي أصدرته على نفسها .

وما أن سكت حتى قالت :

ــ لماذا تكذب ؟

فنكستُ رأسي ، وعادت هي إلى متابعة الحديث بعد أن صمتت بعض لحظات :

ــ كنتَ سعادتي الوحيدة ، وأنت الآن موضع أسفي الوحيد ! ... كلا لا تقاطعني ، دعني أتكلم . تعلم جيداً بأن أمري قد انتهى ، وقد قبلتُ منذ زمن طويل هذه النهاية التي

أصبحتْ اليوم قاب قوسين أو أدنى ، وسأحظى بالهدوء ، إذا كان ما سيحدث فيما بعد لا يعذبني .

أعتقدت أنها تشير من طرف خفي إلى العالم الآخر ، إلى ذلك المجهول الغامض الذي يهول ويفزع ، أنا أيضاً كنت أتعذب من هذا الإفتقار الملح المشغوف إلى « التلاقي ثانية » هذا الافتقار الذي يحطم المخلوقات البشرية عندما يتحابون حقاً في الحياة الدنيا !

فقلت مغمغماً :

آه ! جولي ، لا أريد أن أشك في إجتماعنا العلوي لا أريد.

فاحتجت بقولها :

ــ لست أشك في هذا مطلقاً يا هنري ! أنا واثقة كل الثقة بأني سأظل في انتظارك حتى تأتي وتلحق بي ــ ليس هذا ما يقلق بالي ،... ولكني أفكر في الزمن الذي يستغرقه هذا الانتظار !

ــ ماذا تعنين بقولك هذا ؟

نكست رأسها ، ثم قالت في جهد شديد ، كما يفعل الإنسان عند إدلائه باعتراف شاق أليم :

ــ أشعر بحزن عميق حينما أفكر أنك ستظل مالكاً

لمواهبك ، وأن إلهامك لن يصدر عني ولن يرتد إليّ في أيامك المستقبلة . أوه ! إن في قولي هذا أثرة عمياء ، أثرة دميمة بشعة كأني أتمنى أن تدفن معي في قبري . ولكن كما ترى من حالي فإني أتألم ! أتعذب ! لشد ما أتمنى أن تفقد عبقريتك ، وأن تجهل العزف ولا تعود إلى معرفته وممارسته أبداً أبداً ..

وهنا استولت عليها نوبة من الضيق أشد حدة من النوبات السابقة ، فاضطرت إلى الصمت بعض الوقت .

وفي هذه الأثناء ، همى على قلبي سيل من الحزن ، فلم أعد أستطيع أن أناضل آراءها اليائسة ، وأظهر لها أن الحياة ما زالت ممكنة والأمل مطمعاً . وثبت في وهمي أن موتها الذي تتحدث عنه قبل حينه ، قد وقع وتم فعلاً ، فتنهدت وقلت .

ــ جولي ، تعلمين جيداً أنك حينما تغادرين هذا العالم ، سينتهي كل شيء أيضاً بالنسبة إليّ !

فقاطعتني في قوة :

ــ ليس في مقدورك الكف عن أن تكون فناناً عظيماً ولا تستطيع أن تقتل العبقرية في نفسك لأن صديقتك قد استوفت أنفاسها !

ثم عادت في إصرار إلى الفكرة التي تعذبها ، فقالت :

ـــ ينبغي حتماً أن تظل فناناً . لا مفر من ذلك !

وما أن نطقت بهذه الكلمات ، حتى أجهشت بالبكاء .

فنهضت وتناولت يدها ، يد محتضرة يا سيدي ، وقلت :

ـــ أقسم لك يا صديقتي أني لن اعزف أبداً أمام كائن من كان ، أعدك وعداً صادقاً أن احداً من الناس لن يسمع عزفي من بعدك . لم اعد أريد إلا أن اكون مصلحاً لأوتار البيانات ، صانعاً خامل الذكر ضريراً

فصاحت قائلة وهي لا تقوى على إخفاء فرحها :

ـــ أتقول حقاً ؟

ـــ نعم .

فبذلتْ جهداً كبيراً حتى أدنت فمها من اذني وقالت في همس :

ـــ ستعزف عندما تكون وحيداً في خلوة إلى نفسك ... وانت منصرف بفكرك إليّ انك تعزف لي ، وفي هذه الحالة اعدك بأني سأكون قريبة منك لأستمع لك اتفهمني جيداً ؟ اني اعدك بالتردد عليك ...

لم تشكر لي عهدي ، بل قاسمتني اندفاعي . وقد جمعتْ هذه اللحظة التي تفوق حدود الإنسانية ، روحينا في حمى عجيبة لا تمت إلى المألوف بصلة .

ولما فارقتها في ذلك اليوم ، شعرت في دوار هذه التضحية القصوى بما يشبه هزة فرح قاتل ، وقلت لنفسي : الآن ، لم يعد لديّ ما ابذله في سبيلها !

○○○

سكت « سان فلوران » ومال رأسه على صدره ، وظل غارقاً في أفكاره على هذه الصورة بعض الوقت ، دون أن أجرؤ على ازعاجه بسؤال . وقد أقبل الظلام صاعداً من الوادي إلى حيث نجلس ، وفي ركابه بخار الخريف . ثم رفع الرجل رأسه وقال :

ها هو ذا الليل . أليس كذلك ؟

فأجبت :

ـــ نعم . أتريد ان تغادر الشرفة ؟

عما قليل ... شكراً لك .

وعاد إلى الحديث من تلقاء نفسه :

ـــ لم أنقض عهدي يا سيدي ، وقد فقدتُ « جولي » منذ ثلاثة وعشرين عاماً . وظللت هذه المدة كلها مصلحاً فقيراً لأوتار البيانات في مسقط رأسي !

ومع ذلك فإني أعد هذه التضحية أعظم من تلك ، كما أني لا أعد هذه في الحق تضحية .

في العالم يا سيدي فنانون عذبهم الفن إلى درجة جعلهم ينذرون أنفسهم ، روحاً وقلباً ، لهذا الفن وحده ، أما أنا فلم تكن الموسيقى عندي إلا لغة حبي ، وكان من شأنها أن تظل كذلك لو بقيت لي التي أعبدها !

○○○

سكت « سان فلوران » مرة أخرى ، فاعتقدت أنه لن يعود إلى الكلام بعد ذلك ، وخيل إلي أنه اعتزم ألا يذكر الوقائع الأخيرة لقصته الفاجعة . وفي الحق أني لم أجرؤ على أن أسأله المزيد من السرد . ولكن لم يخالجني شك في أن هذا الرجل الذي لا يبوح بأسراره إلا في القليل النادر ، قد شعر ، وهو يحرك رماد الماضي بفعل ظرف غير عادي ، بلذة قاسية أليمة ، إذ أنه من تلقاء نفسه وصل ما انقطع من حديثه :

ـــ إليك يا سيدي كيف توفيت هذه التي انتهى بي الأمر بأن أعدها زوجتي الحقيقية ، منذ أن ضواها السقم وشرع يجردها من إطارها المادي .

استمر مرضها ، هادئاً تارة وعنيفاً تارة أخرى ، الشتاء كله ، وكان في تلك السنة دافئاً إلى حد كبير ، ثم امتد إلى منتصف الربيع في شهر مايو . وفي ذلك الشهر ، تغير الجو دفعة واحدة وأصبح جميلاً إلى أقصى حد ، لا يعتريه من التقلبات ما يذهب ببعض جماله . وقد قضينا معاً في ذلك الجو أيضاً كثيراً من الآصال الرقيقة الحلوة : هي مستلقية على مقعدها عند حافة النافذة ، منفرجة الشفتين تستنشق الهواء الرخيّ الذي يحمل اليها عطر أشجار الصنوبر ، وأنا جالس إلى البيان محاولاً جهدي أن أنشر على الأوجاع والآلام سحباً عابرة من النسيان بفضل ما أعزفه من عذب الألحان والنغمات .

وكان الطبيب يعودها كل صباح في نحو الساعة العاشرة ، ويتبين مبلغ التقدم الذي أحرزه الانتفاخ في الأعضاء المسكينة التي تغير شكلها وشوه تكوينها ، كما قيل . وكان يقول عند انصرافه في صوت أجش حزين :

ــ أوه ! الحالة في تحسن ... تسير سيراً حسناً ...

ثم يغادر القصر دون أن يكتب دواء للعلاج ...

آه ! يا سيدي ! أية قيمة للعلم الإنساني الذي لا يستطيع ، حتى مع كائن شاب مفعم بالرغبة في الحياة ، أن

ينظم دورة الدم ، ويمنع هذا السائل الحيوي من أن يكون مميتاً للقلب الذي يدفعه ؟!

وفي يوم ١٢ مايو ، وإني لأذكر هذا التاريخ جيداً ، تغير الجو وغدت الحرارة فجأة خانقة لا تحتمل ، والهواء لافحاً ثقيلاً ، فازداد التنفس عند « جولي » صعوبة وألماً ... أسأل الله أن يحفظك يا سيدي من ان تسمع في حياتك خلال ساعات طوال ، إنساناً تحبه من أعماق قلبك ، ينادي ويستعطف ، بكل جهد يقوى عليه صدره المنهوك رقة الهواء المنعشة في جو شديد القيظ ! آه ! هل في استطاعة المرء مساعدة هذا الجهد ؟ هل في طاقة الإنسان أن يساعد بأعصابه وعضلاته ودمه ، هذا التنفس الضعيف المنهوم ، حتى ينتظم ويهدأ ويستريح ؟

وفي يوم ١٦ مايو ، ازداد هذا القيظ الصارم شدة على شدته . وليس من شك في أنك تعرف ، وقد عشت صبياً في بلادنا ، هذه الفترات التي تحمل في ثناياها عواصف بطيئة تكهرب الجو هنا لأيام كثيرة متوالية دون أن يبدو ما يدل على رغبة العاصفة في الظهور السافر أبداً حتى تحرر الطبيعة والأحياء من ثقل هائل وضيق خانق .

كان لزاماً على عزيزتي « جولي » أن تتحمل هذا الضيق ، ونشأ عن ذلك ان تفاقم مرضها إلى درجة جعلت

الطبيب يسر إليّ في يوم ١٨ مايو أن من الحكمة إبلاغ « مسيو دسكاربي » حقيقة الأمر ، إذا كان يهمه أن يرى زوجه وهي على قيد الحياة .

لم أجد إلا « مارسلين » لأداء هذه الرسالة ، لأني لم أشأ أن أتصل شخصياً بجلاد « جولي » .

وعدتُ إلى سهري الحزين عند فراش المحتضرة ...

مرت ساعات ، وانقضى نهار بأكمله ، وليل برمته ، ثم جاء اليوم التالي ... وفي نحو الساعة الأولى بعد ظهر ذلك اليوم ، تمزقت السحب آخر الأمر وتبددت ، ثم هطل مطر غزير خيِّر ، خفف عن الطبيعة كلها وعن « جولي » العزيزة بعض ما بها ، فعادت إلى تبادل الحديث معي بعد أن لزمت جانب الصمت وقتاً طويلاً . وأرادت أن أعزف على البيان ، فقالت :

ــ إني أحسن حالا ... هدهد نفسي بقليل من الموسيقى الرقيقة العذبة يا هنري ... لشد ما أتوق إلى أن أشعر بأن حبك كله يحيط بي يلتف بي ويغمرني .

فجلست إلى البيان ، وقلبي زاخر بالزفرات والتنهدات التي اكتبها جهد المستطاع خشية ان تنطلق وتتفجر . ثم روحت عن هذا القلب بعض آلامه باجتهادي في التعبير عن عواطفي

المضطرمة بألطف الألحان واروع النغمات . هل تصدق يا سيدي إنني لم أستطع قط أن أستعيد تلك القطعة التي وضعتها يومئذ أو ما يقرب منها ؟ لقد كانت ، فيما أعتقد ، عروس عبقريتي المتواضعة ! لم يبق لي منها شيء ، حتى ولا نوع الصوت أو لون الإيقاع ! ومن أجل هذا أسائل نفسي في بعض الأحيان عما إذا كنت لم أحلم هذا اللحن الأسمى أثناء اندفاعي الجنوني الذي ولدته مأساة الساعة ؟

وفجأة توقفت عن العزف ، وأسرعت نحو المقعد المستطيل الذي تحتله « جولي » ...

... ودلني سمعي على أنها لم تعد تتنفس !

الفصل الثالث عشر

حاولت يا سيدي أن أصف لك في الجزء الأول من هذه القصة ، شيئاً يدعو إلى العجب ، هو استيقاظ الضرير . فهل لي الآن أن أشرح لك غرابة الأثر الذي يحدثه موت إنسان محبوب في حساسيتنا ومشاعرنا ؟

أنتم معشر المبصرين ، عندما تتصورون هذا الفراق ... هذا الموت الذي يصيب شخصاً عزيزاً ، فإن الكلمات التي تخرج من بين شفاهكم دون ريب ، هي هذه : « لن نراه أبداً » .

لأن الفراغ الذي تراه أعينكم ، هو الذي يخلق بصفة خاصة ، غيبة الأم أو الزوج التي قضت نحبها . أما أنا يا سيدي ، فإني لم أر « جولي » بجسمها الساحر الغض الذي يتدفق حياة وقوة . ولم أرها بجسمها المسكين الذي هده الألم وأنهكته العلة . وحينما صعدت روحها إلى بارئها استمرت الظلمة

نفسها في مكانها ، حداً فاصلاً بيني وبين الجثة الهامدة التي غمرتها بلثماتي . حتى هذه البقايا العزيزة ، لم تلبث أن انتزعت مني . ولما وقع هذا ، لم يتكاثف الظلام حول عيني ، بل ظل العالم المظلم المستغلق يحيط بي من كل جانب .

من أجلّ هذا ، أعتقد أن ألمي ــ وهو ألم هائل فظيع لا يصعب عليك أدراك مبلغه ــ كان في جوهره انعكاساً « لألمها هي ... لألمها الخاص » . أتفهم جيداً ما أقول يا سيدي ؟ كان ثورة عنيفة أعلنها كل عضو فيّ على ما آلم « جولي » ، وعلى ظلم القدر الذي أصابها وهي في زهرة العمر ، وحطم بضربة واحدة وفي وقت واحد ، حياتها وأحلام سعادتها . وجهتُ إلي القوة المسيطرة لوماً معيباً . وشككت في الله . ولكني أعترف لك يا سيدي بأني أشعر عند موت « جولي » بأنها تغيبت عني .. إنها دائماً معي في الظلام المقيم الذي يغمر من حولي . في مثل هذا الخفاء ، غيبة المخلوقات وحضورها ، وأجسام الأحياء وأرواح الموتى الهائمة .

وإني لأذكر أن أشق شيء على نفسي ، فيما أعتقد خلال الساعات التي تلت الموت ، كان تدخل الأشخاص الآخرين وضجيجهم ، الذي أفسد عليّ خلوتي إلى من ملكت عليّ

قلبي . كنت طيلة أعوام وقفاً لشخص عزيز ، ثم شعرت فجأة بأني غدوت مهمَلاً ، مبعداً عنه ، عاجزاً عن أن أؤدي له أسمى فروض الوداع الأخير . لا قيمة لي ولا فائدة ترتجى مني . أوه ، كان هذا أليماً مريراً ! وليس عندي القوة الكافية التي تعينني على أن أقص عليك ما عانيته حينذاك !

حضر « مسيو دسكاربي » وجاء أفراد الأسرة جميعاً . ولم يطلب مني أحد أن أغادر القصر . بل على النقيض من ذلك ، وجدت منهم على اختلاف آرائهم ، عطفاً واحتراماً أكثر مما كنت أنتظر . ثم أرغمتني الظروف على الوقوف وسط الجماعة صامتاً خاشعاً كأي فرد عادي لاصلة له بما وقع . وكان هذا من أشد ما قاسيت ! أوه .. يومان أسودان عشتهما بين براثن الألم ، من وقت أن فاضت روح « جولي » إلى أن ووريت التراب ! إني لا أتمنى لألد أعدائي أن تمر به ساعة واحدة من مثل هذين اليومين !

لم تدفن « جولي » في المقبرة العامة ، بل في مقبرة خاصة تملكها أسرة دسكاربي في المرج المتصل بحديقة « الباجورو » نفسه ... ولما فرغ القسيس من تلاوة رثائه الديني الأخير ، وجاء دور صفي ــ أي الصف الأخير من المشيعين ــ

ألقيت على القبر ، وكان لا يزال مفتوحاً ، قليلاً من الماء المقدس ، ثم غادرت هذا المكان الذي أصبح عندي منذ ذلك الحين ، موحشاً بغيضاً ، ومعي ذكرى اليومين اللذين قضيتهما فيه !.

سرت بغير دليل حتى بلغت « بوزيه » ... ودخلت بيتي ، ثم صعدت إلى غرفتي وأغلقتها عليّ . ولما اطمأنت نفسي من الاحتكاك بهؤلاء الدخلاء الذين وقفوا يومين كاملين سداً بيني وبين المرأة التي أعبدها ، شعرت بأن شيئاً منها لم يبق هناك ، في القبر الذي يحمل شعار آل دسكاربي . نعم يا سيدي ... « جولي » لم تفارقني ، وكانت على مقربة مني !

يحدثني شعوري بأنك تنظر إليّ نظرتك إلى مجنون عجوز ، وبأن الشفقة وجلال الموت هما فقط اللذان يمنعانك من التبسم ، ولكن ثق يا سيدي بأن المكفوف الذي يخاطبك في هذه اللحظة ليس بمجنون .. « جولي » لم تفارقني ! إنها دائماً معي ، وستظل أبداً تؤنس وحدتي ! لست في حاجة ــ إذا أردت استدعاءها ــ إلى الاستعانة بالأقوال والحركات الغريبة التي يستخدمها ، كما قيل لي ، هؤلاء الذين يدعون الاتصال بأرواح الموتى ، بل يكفيني أن أكون بمفردي ، وأجلس إلى البيان فأعزف كما كنت أعزف لها وعندئذ أؤكد لك أن « محضرها المحبوب »

يحيط بي من جديد وتكون « جولي » شديدة القرب مني ... تسمع لي وتلهمني في آن واحد ، كما كان شأنها أيام كان الحب يجمع بين حياتينا .

صنت عهدي يا سيدي فلا أعزف إلا لها ، وبرت هي الأخرى بوعدها .. فما أن أعزف لها حتى تهرع إليّ ولما استمعت أنت لعزفي منذ قليل دون أن أشعر ، سكنت روحها بيتك بعض الوقت ، ما في ذلك ريب .

من أجل هذا يا سيدي ، لم أقض عن نفسي ، بل قد بدت لي الحياة محتملة . كم من أيام تردت في هوة الماضي منذ أن توفيت « جولي » إنها في مجموعها تكون شهوراً وأعواماً كادت تبلغ ربع قرن . وطوال هذا الزمن ، تابعت طريقي في الظلمة التي لا تدل الأعمى على صباح أو مساء . صرت رجلاً سخيفاً غريب الأطوار وأعرف أني أصبحت هدفاً للتندر والسخرية . حياتي في مظهرها تماثل حياة الفلاحين الذين هم بيئتي المألوفة . لم أعد عند أحد من الناس ، مؤلف ألحان ولا عازفاً يستحق الذكر إني الأب « سان فلوران » الذي يصلح أوتار البيانات في بلده ، بأجر لا يتجاوز في متوسطه خمسة فرنكات ، مهما يكن مبلغ فسادها ...

سأجهر لك بشيء آخر يا سيدي .. هذا السقوط أو هذا التدهور الذي لا أحسه في أغلب الأحيان ، ليس بغيضاً عندي حينما أذكره فأشعر به وأعيه كما حدث اليوم مثلاً بفضلك ، وإني لواثق بأن حالتي هذه ، هي التي تريد « جولي دسكاربي » أن أبدو فيها الآن ، ما دامت هي نفسها لم تعد من أهل الدنيا .

تدهورت وأصبحت غريب الأطوار ، ولكني وفيت بعهدي . ويكفيني أن : « جولي » وحدها عرفتْ ماذا كنتُ كما أنها هي وحدها أدركت ماذا كنت أستطيع أن أكون . من أجلها فقط لم أحل واتغير . وعندما يحلو لها ان تزور وحدتي الأرضية ، يعود الطلل الإنساني الذي تراه الآن يا سيدي ، رجلاً وفناناً .

الفصل الرابع عشر

انتهت قصة مصلح الأوتار الضرير ، عند هذه الكلمات التي نطق بها في صوت بطيء يكاد يكون خافتاً ، كما تنتهي السمفونية بنغمات حزينة متقطعة ووادعة بعد النغمات العنيفة الصاخبة ... ولم يمر بخاطري أي سؤال ألقيه عليه ، لأن التاريخ البسيط قد بلغ آخره كما اختتمه « سان فلوران » بالدقة . ولم أشأ أن أفسد الأثر الذي تركته في نفسي خاتمة هذا التاريخ ، وهو أثر ليس من الحزن أو اليأس في شيء ، ولكنه كان طابعاً لإشراق مشبوب ، لثقة ذات شأن خطير بالعاطفة الإنسانية الوحيدة التي تنتصر على الموت .

بقينا ، أنا والراوي ، جالسين صامتين .. أحدنا قبالة الآخر في شرف « البيجونير » ، وكانت النجوم تسطع في الناحية الغربية من السماء أثناء الحديث ، فلما بلغ السرد نهايته ، شرعت النجوم الأولى تضيء فوق رأسينا .

استمر صمتنا زهاء نصف ساعة ، ثم تحرك « سان فلوران » في مقعده الريفي وسعل سعالاً هيناً رقيقاً ، وقال في صوت متغير لم يعد ينم شيء فيه على الانفعال :

ـــ إذا أردت يا سيدي ، تركنا الشرفة ودخلنا البيت فالليل كثير الرطوبة وعندي بعض الروماتزم .

فأخذت بيده ودخلنا ، وشعرنا بأن داخل المنزل أشد برداً من خارجه ، كما يحدث كثيراً في فصل الخريف . ومن أجل هذا سعل « سان فلوران » مرة أخرى ، فقال في همهمة :

ـــ لقد أصابت الرطوبة حلقي .

فعرضت عليه أن يشرب قدحاً من (الجروج) فقبل مسروراً .

استدعيت « إرما » وأصدرت إليها أمري ، فجاءت على مهل بزجاجة الخمر وقدحين وبعض السكر والليمون وإبريق صغير به ماء ساخن تتصاعد منه رائحة سيقان العنب المحترقة .

ثم أعد « سان فلوران » قدحه ، ولكنه قبل أن يصب فيه (الأرمانياك) قال :

ـــ ها هي ذي خمر معتقة يا سيدي .. أتأذن لي في أن أسألك من أين تأتي بها ؟

فتولت « إرما » الإجابة عني وقالت :

ـــ كان عندنا بعض زجاجات قديمة في كهف العمة « روزالي » .. ورثتها هي نفسها من عم لها كان يسكن « الباستيد » في جوف « أرمانياك السفلى » .

ولما فرغت « إرما » من إجابتها قال « سان فلوران » في صوت خافت هادىء :

ـــ ما أبدع هذه الخمر ! اليوم لا بد من البحث طويلاً في أرجاء المقاطعة ، قبل أن يوفق المرء إلى إستكشاف مثلها ! سأشربها يا سيدي نقية صافية ، فإن ذلك أدعى إلى أن تمدني بقسط أوفر من الحرارة ... من الإجرام أن أمزجها بالماء .

وحقق الرجل قوله ، بينما كنت أرقبه في تعجب رقيق وجنان وفير . وأعتقد اعتقاداً راسخاً أن أي إنسان يرى هذا الشارب الخمر ، المنهوك القوى النكرة الذي يستمرىء طعم الخمر في جد خطير .. لا يمكن أن يظن أنه كان بطل القصة التي ملكتْ عليّ نفسي منذ هنيهة حتى كادت تستدر دموعي ، وأن « سان فلوران » المسكين ارتوى في سابق أيامه من أشد ينبوعين تأثيراً في العاطفة الإنسانية : الفن والحب .

مكتبة ○○○
t.me/t_pdf

الفهـرس

الموضوع	الصفحة
مقدمة	٧
الفصل الأول	١١
الفصل الثاني	٢٧
الفصل الثالث	٣٧
الفصل الرابع	٤٩
الفصل الخامس	٦٩
الفصل السادس	٨٣
الفصل السابع	٩٥
الفصل الثامن	١١٥

الفصل التاسع ١٣١
الفصل العاشر ١٥٣
الفصل الحادي عشر ١٦٩
الفصل الثاني عشر ١٨٣
الفصل الثالث عشر ٢٠١
الفصل الرابع عشر ٢٠٩

مصلح البيانو الضرير

« مارسيل بروفو » كاتب فرنسي بارز . ظهرت براعته بنوع خاص وبدأ تفوقه في ميدان القصة . ويعد من أهم الكتّاب الذين انقطعوا إلى تحليل المرأة ونفسيتها حيث وصفها وصفاً دقيقاً وحمل عليها وأبان عن ضعفها الاخلاقي .

أما القصة المثيرة (مصلح البيانو الضرير) التي ننشرها له اليوم فهي قصة بديعة ، بعيدة عن أن تكون صورة من صور عيوب المرأة في ضعفها . نعم ان المرأة في هذه القصة ضعيفة ولكنه ضعف ناشيء عن مرض خطير يفتك بها ويقضي على حياتها . أما الرجل المسكين الضرير في حبه الطاهر فهو صحية الإخلاص والذكرى .

السعر ١٥ ل